سلسلة: إيقاظ أهل الإيمان لمغفرة رمضان (٢)

حال المؤمنين في رمضان

لفضيلة الشيخ

د/ محمد الدبيسي

حفظه الله وغفر له ولوالديه

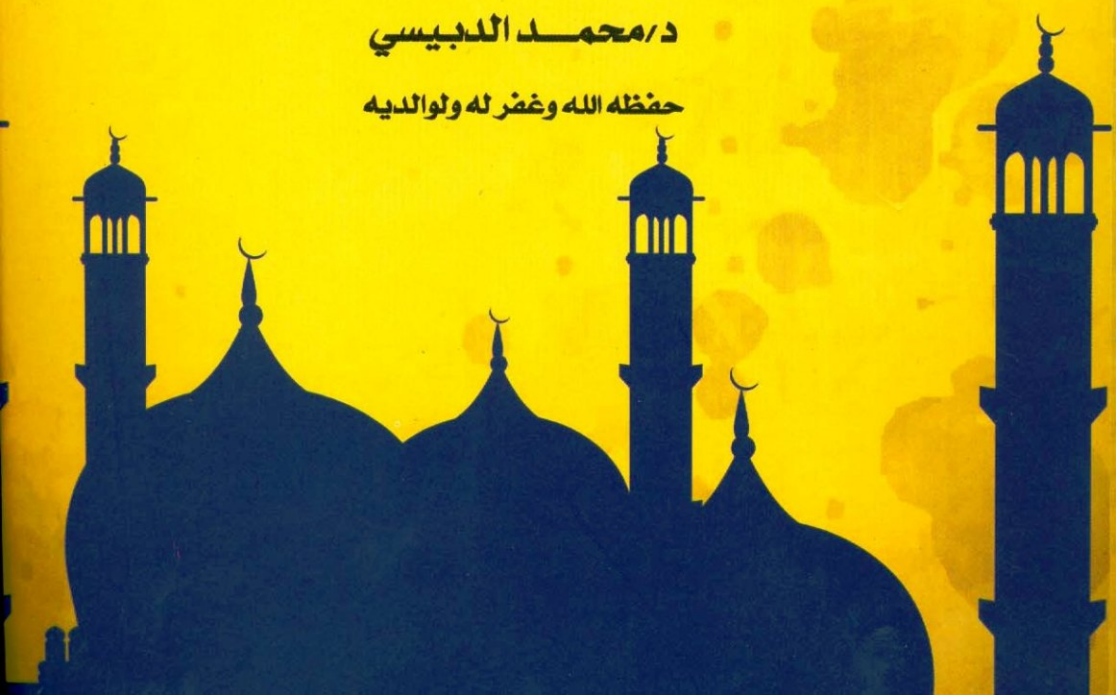

الطبعة السادسة

رمضان ١٤٣٤هـ الموافق يوليو ٢٠١٣ م

رقم الإيداع : ١٤٤٨١ / ٢٠١٣

جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة السادسة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وبعد..

مع ما يمر بمصر والعديد من بلاد المسلمين من أحوال ، يأتي رمضان هذا العام بمزيد المسئولية علينا وعلى المؤمنين، بإصلاح النفس والدعوة إلى الله والإصلاح بين المسلمين وذلك بمزيد المجاهدة للتحقق بأحوال رمضان من التوبة وحسن الصيام وطول القيام والبذل والإحسان مع دوام التضرع إلى الله تعالى لرفع البلاء النازل. وكذلك بالمجاهدة على تبوء الدعوة إلى الله تعالى مكانها الصحيح الذي تراجعت عنه هذه الأيام، ثم الاجتهاد في الدعاء وبذل الجهد في الإصلاح بين المسلمين لرفع الخلاف والشقاق من بينهم ، كل ذلك ترقبا لنصر الله تعالى كما قال تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد: ٧] .

وكمساهمة يسيرة في ذلك، جاءت هذه الطبعة من الرسالة وقد صححنا فيها العديد من أخطاء الطبعة السابقة، بالإضافة للاقتصار على بعض الإضافات والتعديلات التي أضفنا جزءا منها لضيق الوقت، ونأمل استدراك ما بقي في الطبعة القادمة إن شاء الله تعالى .

وبعد:

فما كان من صواب فمن الله، وما كان من خطأ فمنا ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريئان، ورحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا.

نسأل الله تعالى أن ينفع به قائله وكاتبه وناشره والناظر فيه؛ إنه سميع الدعاء.

مسجد الهدي المحمدي

٢٣ شعبان ١٤٣٤ هـ

مقدمة

إن الحمد لله، نَحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء:١]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي، هدي محمد ﷺ، وشر الأمور مُحدثاتُها، وكل مُحدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

اللهم صل على سيدنا محمد النبي، وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته وأهل بيته، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميدٌ مجيد.

فهذه صفحات منتقاة من خطب ألقاها **فضيلة الشيخ/ محمد الدبيسي** في شهر رمضان عبر عدد من السنين، ونظرًا لضيق الوقت كان انتقاؤها واختصارها وترتيبها على هذا النحو، مع احتفاظنا بخطب أخرى لم ننتخب منها شيئًا، على أمل أن نتوسع بها في تلك الخطب بعد ذلك؛ إتمامًا للفائدة؛ وتوضيحًا لما أُغفل منها وسدًّا لخلل وقع فيها.

وهذه الخطب امتداد لخطب (**حال المؤمنين في شعبان**) التي طبعت، والتي تبين كيفية استعداد المؤمنين لاستقبال رمضان؛ ترقبًا للمغفرة والعتق من النار في ذلك الموسم العظيم من مواسم المغفرة.

ولما كانت قضية المغفرة هي أهم القضايا وأخطرها - خاصة في رمضان- حتى قال ﷺ: «**خَابَ وَخَسِرَ مَنْ أَتَى عَلَيْهِ رَمَضَانُ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ**»[1] كانت هذه الخطب التي توضح أهمية المغفرة، وطرق تحصيلها، وآداب هذا التحصيل، وكيف يخرج المرء

(١) أخرجه الطبراني (٢/٢٤٣ ، رقم ٢٠٢٢) والبزار (٩/٢٤٧ رقم٣٧٩٠) وأبو يعلى (١٠/٣٢٨ ، رقم ٥٩٢٢)، وصححه ابن حبان (٣/١٨٨ ، رقم ٩٠٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/١٣٩) : رواه الطبراني بأسانيد ، وأحدها حسن. ولفظه (عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أتاني جبريل فقال: من ذُكِرْتَ عنده فلم يصلِّ عليك دخل النار فأبعده الله وأَسْحقه، قلْ: آمين، فقلتُ: آمين. قال: ومن أدرك والديه أو أحدَهما فلم يبرّهما دخل النار فأبعده الله وأسحقه، قلْ: آمين فقلتُ آمين، ومن أدرك رمضان فلم يُغْفَرْ له دخل النار فأبعده الله وأسحقه قلْ: آمين، فقلتُ: آمين).

من رمضان تقيًّا، قد حصَّل زاد التقوى، وأخذ شحنة عظيمة من الإيمان يتقوى بها إلى أن يصل إلى موسم آخر من مواسم الرحمة والعمل الصالح، وكل ذلك يبين فضل الله تعالى وعنايته بالمؤمنين، حتى يقبلوا عليه بالمحبة والخوف والرجاء، واليقين والرضا، ودوام الذكر مع امتثالهم لأوامره، واجتنابهم لنواهيه، واتباعهم لتعاليمه التي بيَّنها رسول الله ﷺ وكان الأسوة والقدوة فيها، وحتى يكون أنسهم وشوقهم إليه.

ومن ناحية أخرى يخرجون من رمضان مستعدين للقاء الله تعالى قد ظهرت عليهم بشريات المغفرة وآثار الرحمة، بالزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة، والاستقامة على طريق الله تعالى متحملين لمسئولية هذا الدين باذلين في سبيله الرخيص والغالي، داعين إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

وبعد:

فما كان من صواب فمن الله، وما كان من خطأ فمنا ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريئان، ورحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا.

نسأل الله تعالى أن ينفع به قائله وكاتبه وناشره والناظر فيه؛ إنه سميع الدعاء.

مسجد

الهدي المحمدي

الفصل الأول:

التصميم على تحقيق أسباب المغفرة

- قيمة المغفرة
- أسباب المغفرة

أولًا: قيمة المغفرة

إن الله تعالى فتح للناس مواسم المغفرة، لتزداد فيها العبادة، ويرتفع فيها مؤشر الاجتهاد، حتى يكون ذلك استدراكا لما فات المرء من أعمال طوال العام، وحتى يذهب عن قلبه ما ران عليه من الغفلة والبعد والتكاسل والتقصير والذنوب والسيئات؛ فتكون هذه المواسم غسلًا لسيئاته، وتكفيرا لذنوبه، وليكون المرء فيها أقرب إلى الله تعالى، وأحب إليه وأكثر استعدادا للقاءه، وكذلك ليكون أكثر زهدًا في الدنيا، وأكثر محبة للآخرة واستعدادا لها.

ورمضان من أعظم المواسم التي فتحها الله تعالى للمغفرة، كما بشر بذلك النبي ﷺ في قوله: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[1]، وقوله: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[2]، وقوله: «**مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا واحتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[3].

فتح الله تعالى رمضان ليكون فرصتك لتحصيل تلك المغفرة، فإنه كما يقولون: من لم يغفر له في رمضان فمتى يغفر له؟ وكما قال النبي ﷺ: «**وَرَغِمَ أَنْفُ**

---

(١) رواه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠)، ولفظه (عن أَبي هُرَيرةَ رضيَ اللَّه عنهُ، عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم قالَ: « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا واحْتِسابًا، غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذنْبِهِ »).

(٢) رواه البخاري (٢٠٠٩)، ومسلم (٧٥٩)، ولفظه (عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّه عَنْهُ، قَال: كانَ رسُولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم يُرَغِّبُ في قِيَامِ رَمَضَانَ مِنْ غيْرِ أَنْ يَأْمُرَهُمْ فِيه بعزيمةٍ، فيقُولُ: « مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمانًا واحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّم مِنْ ذَنْبِهِ »).

(٣) رواه البخاري (٢٢/١ ، رقم ٣٧) ، ومسلم (٥٢٣/١ ، رقم ٧٥٩) . ولفظه (من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدَّم مِنْ ذَنْبِهِ، ومن قام ليلةَ القَدْرِ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدَّم مِنْ ذَنْبِه).

رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ » [1] **« ومن أدرك رمضان فلم يُغْفَرْ له دخل النار فأبعده الله وأسحقه قل: آمين، فقلتُ: آمين ».** [2]

وبالنظر والمشاهدة والتتبع للأحوال المتعلقة بتحقيق المغفرة، نجد أنه ما أن ينتهي رمضان حتى يرجع الناس إلى أسوأ مما كانوا فيه في رمضان وقبل رمضان، فيرجعون إلى التقصير والتفريط والغفلة، وكأنهم لم يصلوا، ولم يقوموا، ولم يتصدقوا، ولم يصوموا، ولم يقرءوا القرآن، ولم يتدبروا، ولم يقبلوا على الله تعالى!

والسؤال الذي يؤرق المرء: هل هذا الحال هو حال من خرج من رمضان وقد غفرت ذنوبه وأعتق من النار؟ ما السبب الذي جعل الناس يخرجون من رمضان كما دخلوا فيه أو أسوأ ؟ **ما السبب الذي جعل الناس لا يخرجون من رمضان بالمغفرة ؟**

إن التفكر في هذا الحال هو الذي يدور في نفس المرء، ويود مطالعة أهل الإيمان على معانيه، لعل ذلك يكون سببًا في مسارعتنا من أول يوم إلى تحقيق هذه المغفرة، لذلك فالكلام في هذا الفصل عن الأحوال التي بها تتحقق المغفرة ، أو لا تتحقق.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٥) من حديث أبي هريرة ﷺ وقال: حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه الطبراني (٢/٢٤٣ ، رقم ٢٠٢٢) والبزار (٩/٢٤٧ رقم٣٧٩٠) وأبو يعلى (١٠/٣٢٨ ، رقم ٥٩٢٢)، و أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٣ / ١٩٢)، وقال الأعظمي: إسناده جيد، وصححه ابن حبان (٣/١٨٨ ، رقم ٩٠٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/١٣٩) : رواه الطبراني بأسانيد ، وأحدها حسن. ولفظه (عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أتاني جبريل فقال: من ذُكِرْتَ عنده فلم يصلِّ عليك دخل النار فأبعده الله وأَسْحقه، قلْ: آمين، فقلتُ: آمين. قال: ومن أدرك والديه أو أحدَهما فلم يبرّهما دخل النار فأبعده الله وأسحقه، قلْ: آمين فقلتُ آمين، ومن أدرك رمضان فلم يُغْفَرْ له دخل النار فأبعده الله وأسحقه قلْ: آمين، فقلتُ: آمين).

وأول ما يلاحظه المرء، أن الغفلة عن قيمة وقدر وعظم هذه المغفرة هو سبب عدم بذل الجهد والوقت والمال الكافي لتحقيق أسباب هذه المغفرة.

وسوف نشير إلى بعض ما ورد من الكلام عن المغفرة وأهميتها في آيات الله تعالى، حتى يتبين أهل الإيمان قيمة المغفرة، ليضعوها نصب أعينهم، ولا يحيدون عن النظر إليها، والعمل لها، وبذل الجهد والوقت والمال والنفس، لعلهم يصيبوها فيفوزون فوزا عظيمًا.

أول ما يستوقفنا في هذه الآيات، هو قول الله جل وعلا: ﴿ **وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ** ﴾ [البقرة: ٢٢١] فهو سبحانه وتعالى يدعو عباده إلى المغفرة، يدعونا نحن المتلوثون الخطاءون، الآثمون المجرمون، المقصرون المتبعون للشهوات، يدعونا: ها قد جاء وقت المغفرة، هلموا إلى المغفرة، هلموا إلى ما ينفعكم، هلموا إلى نجاتكم في الأولى والآخرة، هلموا إلى ما يكفر سيئاتكم حتى تكونوا أهلا لمجاورة ربكم في جنته .

فالداعي إلى هذه المغفرة هو الله تعالى، وكفى بتلك دعوة أن نستجيب لها، ونسارع إليها، ونهتم بها، ونتسابق إليها، ونتنافس فيها. ها هو سبحانه وتعالى يدعونا إلى المغفرة ثم نحن نُول ظهرنا لها ! ونفضل عليها الدنيا والمال والشهوات ! ها هو سبحانه وتعالى يدعونا إلى المغفرة ونحن نفضل عليها النوم والكسل والتسويف !

ماذا ننتظر وهو يدعونا إلى المغفرة ونحن نعرض عنه، ولا نلقي له بالا ، ونأخذ الأمر بهذا الضعف وهذه الاستكانة ؟

وقد يسر الله تعالى لعبادة أسباب التحقق بالمغفرة في رمضان، كما قال النبي ﷺ: «**إِذَا جَاءَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ**»[(١)] وكذلك قوله ﷺ - فيما يرويه عن ربه سبحانه وتعالى - يقول: « **الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ترك شهوته وطعامه وشرابه لأجلي، كل عمل ابن آدم له إلا الصوم، كل عمل ابن آدم كفارة إلا الصوم** »[(٢)]، وكل ذلك تيسير الله تعالى وتسهيله لعبادة ليغفر لهم، فقد دعانا سبحانه إلى المغفرة ويسر لنا تحقيق أسبابها، فماذا ننتظر ؟

---

(١) أخرجه البخاري: (١٨٩٨) ، ومسلم: (٢٥٤٧) ، والنسائي: (٢١١٢) ، ومالك في الموطأ: (٦٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٧٠/٢ ، رقم ١٧٩٥) ، ومسلم (٨٠٧/٢ ، رقم ١١٥١). ولفظه (أبو هريرة - رضي الله عنه - : أن النبيَّ ﷺ قال: «كلُّ عملِ ابنِ آدمَ يضاعَفُ : الحسنةُ عشر أمثالها إلى سبعمائةِ ضِعْف ، قال الله عزَّ وجلَّ : إلا الصوم ، فإنه لي ، وأنا أجزي به ، يَدَع شهوتَهُ وطعامَه من أجْلي ، للصائم فرحتان ، فرحة عند فِطْره ، وفرحة عند لقاءِ ربِّه ، ولَخُلُوفُ فيه أطيب عند الله من ريح المسكِ». وفي رواية قال : قال رسولُ الله ﷺ : «كلُّ عملِ ابنِ آدمَ له ، إلا الصيامُ ، فإنه لي ، وأنا أجْزِي به، الصيامُ جُنَّة ، فإذا كان يومُ صومِ أحدِكم فلا يَرْفُثْ يومئذ ولا يَصْخَبْ ، فإن شاتَمه أحَد أو قاتَلَهُ، فليقلْ : إني صائم ، إني صائم ، والذي نفسُ محمد بيده ، لَخُلُوفُ فم الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسك ، وللصائم فرحتان يفرحهما ، إذا أفطر فرح بفطره ، وإذ لقي ربَّه فرح بصومه»).

والملاحظ للآية يجد أن قوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٢١] سبقه قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٢١] ، **فهؤلاء المعطلون عن التحقق بأسباب المغفرة، يدعون إلى النار**، يدعون إلى العذاب، يدعون إلى البعد عن الله والشقاء في الأولى والآخرة بسبب الغفلة والذنوب والمعاصي، يدعون إلى نسيان الآخرة والانهماك في الدنيا والإقبال على الشهوات، حتى تفسد القلوب وتفقد حلاوة الإيمان ولذة الإقبال على الله، وتضعف عن القيام لرب العالمين، فكيف نستجب لدعوتهم ونفضل ذلك على المغفرة والجنة ؟!

وتلك الدعوة للمغفرة جاءت أيضا في قوله تعالى: ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ ﴾ [إبراهيم: ١٠] ، ها هو خالق السموات والأرض، مالك السموات والأرض، بارئ السموات والأرض، الذي يملك كل شيء، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ، ثم نحن نفضل الدنيا والأكل والشرب والشهوات ونعرض عن دعوته !

الآية التالية تبين امرًا زائدا، فالمولى سبحانه وتعالى لم يدع فيها عباده إلى المغفرة فقط، ولكنه **وعدهم هذه المغفرة وعدًا أكيدًا** إذا ما قاموا بأسبابها وتحققوا بشروطها، فقال: ﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، فهذا وعد الله تعالى الذي لا يتأخر بالمغفرة، وتقديم لفظ الجلالة في الآية يأتي لتبيين قدر هذه

المغفرة وتعظيمها وبيان شدة خطورتها، ثم نحن نعرض عن هذا الوعد المتحقق لا محالة ونقصر في التحقق بأسباب هذه المغفرة !

وهذه الآية أيضا، سبقها قوله تعالى:﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، فكيف نصدق وعد الشيطان، وهو لا يملك أن يفقر أحد ولا يملك شيء، ولكنها وساوس الشيطان التي يثبط بها المؤمنين عن السير في طريق الله، فهو يسول للمرء أنه إذا قام بهذه الطاعات أن ذلك سيفقره، والشيطان لا يملك أن يحقق هذا الوعد، فكيف نصدق موعودًا لا يمكن أن يتحقق من الشيطان ونترك موعود الله الحق سبحانه وتعالى !

وأما ما جاء من الآية التالية في شأن المغفرة فهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [النجم: ٣٢]، فبين أن مغفرته واسعة كما أن رحمته واسعة، وانظر إلى فضل الله تعالى وسعة مغفرته وإحسانه وكرمه، ثم إذا بالمرء زاهد في هذه المغفرة الواسعة، مقصر في التحقق بأسبابها !

قوله أيضا: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ [الرعد: ٦] يبين ذلك المعنى من سعة رحمة الله وعظيم فضله على عباده، فهو سبحانه يغفر لهم على ظلمهم، وانظر كيف فتح موسم رمضان ليكون تلك الفرصة للخروج من المظالم التي اقترفها المرء طوال عامه.

وبعد دعوة المولى سبحانه وتعالى للمغفرة والوعد الأكيد بها، إذا به سبحانه يأمر بالمسارعة إلى هذه المغفرة، قال تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، والمسابقة فيها، قال: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ [الحديد: ٢١].

والمسارعة هي أن يجري كل أحد لتحصيل المغفرة ، والمسابقة هي محاولة كل واحد أن يكون الأول في وصوله للمغفرة وتحققه بها. فعندما تعلق الأمر بالمغفرة والجنة، لم يرض منهم المولى جل وعلا إلا بالمسارعة والمسابقة والمنافسة لتحصيل هذا الفضل، وذلك كله في طلب الآخرة، أما طلب الدنيا فلم يطلب المسارعة في طلبها، لأنه ضمنها لخلقه، فكيف نترك المسارعة في الفضل والدرجات التي وعد الله عليها بالمغفرة والجنة، ونتسابق في تحصيل ما ضمنه الله تعالى لنا ؟!

إن هذه المغفرة هي التي يدندن حولها الأنبياء والمرسلون والصالحون فالأمثل فالأمثل، وهي التي رفع شعارها إبراهيم وقبله نوح وقبله آدم إلى النبي ﷺ، فالأنبياء هم أكثر الناس فهما لهذا المعنى، ورغم أنهم معصومون، لا ذنب لهم، سألوا الله تعالى المغفرة ليكون ذلك تعليما لأتباعهم ومن جاء بعدهم، فقد قال نوح: ﴿ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧] ، وقال موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي ﴾ [القصص: ١٦]، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٨٢]، فإذا كان إبراهيم عليه السلام، وهو النبي المعصوم من الذلل، يطمع أن يغفر الله تعالى له، فأولى بأهل

الإيمان إذا فتح الله لهم موسما تغفر فيه خطاياهم وتكفر فيه سيئاتهم، أن يقتنصوا هذا الموسم وأن يعضوا عليه بالنواجذ، وألا يتفلت منهم كما تفلت من قبل بغير مغفرة وبغير عتق من النار .

لذلك ينبغي **أن تكون المغفرة هي مطمع كل أحد**، وليس طمعا في أن يغفر الله له بغير عمل وبذل وجهد ولا سبب، فهذا من التمني الكاذب كما سنرى في باقي الآيات.

وذلك الطمع في المغفرة جاء أيضا في قوله: ﴿ **إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ** ﴾ [الشعراء: ٥١]، وهي التي ينبغي أن تكون شعار أهل الإيمان، فهم لا يرون لهم فضلا ولا حقا، ولكنهم يطمعون في تلك المغفرة بكرم الله تعالى وفضله ومنته جل وعلا.

وكذلك وجدنا النبي ﷺ يعلم أمته كما جاء في الحديث، أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه- قال للنبي ﷺ يا رسول الله، علمني دعاء أدعو به في صلاتي قال: "**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي من عندك مغفرة إنك أنت الغفور الرحيم**» [1] لذلك لقنه الله تعالى قوله: ﴿ **وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ** ﴾ [المؤمنون: ١١٨] .

(١) أخرجه البخاري(٧٣٨٨).

علمت إذن أيها المؤمن قيمة المغفرة، وعقدت العزم على بذل وسعك وجهدك للتحقق بها، وظل قلبك ولسانك يلهج بالدعاء إلى الله تعالى، وذلك لأن الدعاء بالمغفرة هو دأب الصالحين، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٦]، وهم لا يقولون ذلك إلا بعد أن بذلوا طاقتهم في التحقق بأسباب المغفرة، فيكون ذلك أدعى لاستجابة الله تعالى لهم، وكما قال أيضا: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٧] ، وقالوا أيضا: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٣].

فإذا كان هذا دعاءهم، فقد فتح الله تعالى رمضان لتحقيق هذه المغفرة، وفتح فيه أبواب الخير ووسعها أمام الجميع، ليأخذ كلٌ بحظه من أسباب المغفرة، **اما ان يأتي رمضان فيفرط المرء في تحقيق أسباب المغفرة**، وأسباب العتق من النار، ولم يسر السير القوي الحثيث إلى الله تعالى، بل لا زال سيره مترددًا ضعيفًا، عين في الدنيا وعين في الآخرة، يحاول أن ينام وأن يأخذ قسطه من الراحة، ويؤخر لذلك صلاته، وعبادته، فإن ذلك يؤدي إلى عدم التحقق بالمغفرة، وهو الخسران، كما قال تعالى: ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، وكذلك في قول آدم: ﴿ وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ

﴿لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وهي الآيات التي تبين عاقبة عدم التحقق بالمغفرة.

وهذه الآيات تبين أن **عدم الفوز بالمغفرة هو الخسران الذي لا ينجبر**، فإن أتى المرء ربه يوم القيامة ولم يغفر له، بماذا يقابل الله تعالى ؟ كيف يأتي يوم القيامة وقد حمل بهذه الأوزار والسيئات والذنوب؟ قد دعاه الله للمغفرة فلم يستجب، ووعده فلم يعبأ بوعد الله تعالى، وأمره بالمسارعة فنام عنها، وأمره بالمسابقة فتخلف وترك غيره ليسابق، فماذا ينتظر هذا المسكين عندما يأتي ربه سبحانه وتعالى ؟ ماذا ينتظر من أتى ربه خاسرًا ، بعدما فتح له كل هذه الفرص للمغفرة والعتق من النار ؟

والنقطة الأخيرة المهمة في هذا الفصل، تتعلق بصفات هؤلاء الذين يغفر الله تعالى لهم، لذلك نشير إلى شيء من تلك الآيات التي تبين صفاتهم وذلك لأمرين: **الأول:** لترى نفسك هل تحققت بهذا الصفات التي يغفر الله لك بسببها، **والثاني :** أنك إذا علمت أنك لم تكن على هذا الحال، فقد فتح الله لك موسم رمضان لتتحقق فيه بهذه الأعمال وتلك الصفات التي تجعلك في عداد هؤلاء الذين غفر الله تعالى لهم أو سيغفر لهم.

أول هذه الآيات قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ﴾ [الأنفال: ٤] ، وهذه الدرجات إنما تأتي بعد المغفرة، فالمغفرة هي المقصود الذي يسعى إليه المؤمنون، ثم يترتب على تلك المغفرة الدرجات والرزق

الكريم في الدنيا والآخرة، وقد ذكر الله تعالى صفات هؤلاء في الآيات التي سبقت هذه الآية ، قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢-٤].

والملاحظ لتلك الصفات لا يجد فرصة أفضل من رمضان للتحقق بها والسير في ركاب أهلها، فقوله تعالى: ﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ فها قد جاءه رمضان ليذكر ربه وليلين قلبه لهذا الذكر، ولتلاوة القرآن، ثم قال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ وهذا الإنفاق والجود يزداد في رمضان، ثم هم قبل ذلك كله: ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فلا يظنون أن انشغالهم بالطاعة والعبادة سيعيقهم عن رزقهم، أو أن في هذه العبادة تعبهم وشقاءهم، لا، وإنما هم متوكلون على الله تعالى في كل ذلك، مستبشرون بموسم الرحمة الذي فتحه الله تعالى لهم.

الآيات التالية في قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩] ، وقوله تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحج: ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وهذه الآيات كلها، وعد الله تعالى فيها بالمغفرة، الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وها قد فتح موسم الإيمان والعمل الصالح، أضف إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٨]، وهي الآية التي تبين صفة أخرى وهي القرض الحسن، سواء كان صدقة أو مواساة لأهل الإيمان.

والصفة التالية في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]، فالقول السديد سبب لأن يغفر الله تعالى لعبادة، وأن يفتح عليهم، **فيمسك المرء لسانه فلا يقول إلا خيرا أو يصمت**، وإذا نطق، ذكر الله تعالى أو تكلم بما يقربه إلى الله تعالى، ورمضان هو أعظم المواسم التي يتعود المر فيها أن يمسك لسانه، ويقول السداد ويحفظ قلبه وجوارحه، حتى يكون صومه في محل القبول عند الله تعالى وسببا لتحقيق المغفرة، فلو أطلق المرء لسانه يمينا وشمالا، ضاع صومه ولم يكن سببا لخروجه بالمغفرة.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩] ، يأتي فيها أعظم الأسباب التي تكون سببا لتحقيق المغفرة ، **وهي التقوى** ، لأن تقوى الله جل

وعلا هي الهدف الأعظم من الصيام، لذلك فهي السبب الأول الذي تتحقق به المغفرة ، وهو ما سوف نشير إليه لاحقا بإذن الله تعالى.

فها قد علم أهل الإيمان قيمة المغفرة وعظم قدرها، وعلموا كذلك أوصاف هؤلاء الذين يغفر الله تعالى لهم؛ ليكون كل أحد على بينة من أمره في رمضان، كيف يتحقق بهذه الأوصاف وتلك الشروط؟ وكيف يسارع إلى هذه المغفرة؟ وكيف يتقرب إلى ربه ويحبه حتى يغفر له ذنبه، **إذا لم يستمسك المرء بهذه الأوصاف ويسارع إلى التحقق بها، ضاع عليه رمضان كما ضاع من قبل**، أما إذا سارع إلى التحقق بذلك ، فلعل الله تعالى أن يفتح عليه في هذا الموسم المبارك، وأن يكون هذا الشهر هو أعظم الشهور التي مرت عليه منذ ولدته أمه، أن يكون هذا الشهر له، هو شهر المغفرة والرحمة والعتق من النار، فإن غفر له في ذلك الشهر الكريم، فماذا يريد بعد ذلك؟ قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٦].

ثانيًا: أسباب المغفرة

بعد أن علمنا قيمة المغفرة وعظيم قدرها، وأن عدم الفوز بها يعني الخيبة والخسارة، وأننا في أشد الاحتياج إلى تلك المغفرة، وفي غاية الفقر والاضطرار إليها، ينبغي إذن أن تكون خطوتنا الأولى للتحقق بالأحوال الحسنة التي سمعنا عنها أن تكون قضيتنا في رمضان: **التصميم على تحقيق أسباب المغفرة** مهما كانت الظروف

ومهما كان البذل ، فهذا العام لن نتهاون مع النفس والشيطان ككل عام، بل سنتوكل على الله ونأخذ الأمر بقوة وحذر، ونستعين بالله تعالى ونفتقر إليه سبحانه.

نحن نريد المغفرة في هذه الأيام، أليس كذلك؟ **المغفرة لها عمل زائد عما كنا عليه قبل رمضان**. فإن كنا لم نفكر في القيام بأعمال نحصِّل بها تلك المغفرة، أو العتق من النار؛ وجاء رمضان على ما نحن فيه من حال؛ فلا بد أن يكون هناك اجتهاد زائد يوازي تلك المغفرة - وهي في الحقيقة لا يوازيها شيء - ولكن نحاول أن نعمل على هذا الحال الزائد، لا أن نكون كما كنا قبل رمضان، أو كما هو الحال في رمضان السابق من التململ والاستثقال والملل من العبادة والتخفف منها وانتظار الخروج من تلك العبادة، وإنما نود ألا نخرج منها وأن نستمر حتى نصل إلى الله تعالى.

إذن هذه بداية يبتدئها المؤمنون اليوم: **إنهم لن يقدموا على الله تعالى شيئًا**، وأنهم سيستغلون هذا الأيام القليلة في رمضان في تحصيل هذا الحال ، قبل أن يمر الشهر مرورًا سريعًا كما تمر الدنيا على هذا الحال أيضًا.

هؤلاء الذين عرفوا ربهم، وعرفوا قيمة المغفرة، استرخصوا في سبيل ذلك كل شيء، وعلموا أن ما يبذلون إنما هو من مدد الله تعالى وقوته سبحانه وتعالى، وعلموا أنهم مهما بذلوا له، فإن ذلك لا يساوي شيئًا في جنب مغفرته، ومحبته التي يسبغها عليهم، ومعرفته التي أحاطهم بها، و توحيده الذي ألقاه في قلوبهم، و طمأنينته وذكره واصطفائه لهم سبحانه وتعالى.

علموا أنهم مهما بذلوا، فإن ذلك البذل لا يوازي المغفرة، لا يوازي العتق من النار، لا يوازي أن تثقل موازينهم يوم تخف الموازين كما قال: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

ولنعلم إن ما نبذل ونعطي ونجاهد ونكافح ونقوم ونصلي ونجود وكل ذلك إنما هو من عطاء المولى سبحانه وتعالى؛ لماذا ؟ لأننا على الحقيقة فقراء : ﴿ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥] فكيف نبخل بما أعطانا؟ وكيف نقصر في أن نكون عنده سبحانه وتعالى من المقدمين ؟

بعد أن رفع أهل الإيمان شعارهم في رمضان: التصميم على تحقيق أسباب المغفرة، فإن خطوتهم التالية أن يعلموا هذه الأسباب، وأولها هو التوبة.

أولًا: الطريق لتحقيق المغفرة لا بُدَّ أن يبدأ بالتوبة

وذلك لأن سبب عدم المغفرة في رمضان، وعدم العتق من النار، وعدم رفع الدعاء، والقيام، والصيام، وسبب الخروج من رمضان بمثل الحال الذي كان قبل رمضان هو: **دخول رمضان بلا تطهر من الذنوب والمعاصي، وبلا توبة صادقة إلى الله تعالى** ، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١] فكيف يغفر للظالمين في رمضان؟ وكيف يرحمهم؟ وكيف يعتقهم من النار؟ وكيف

يتقبل أعمالهم؟ الله لا يتقبل من هؤلاء، ولكن كما قال ﷻ: ﴿ **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ** ﴾ [المائدة: ٢٧].

والتوبة هي: النَدَم ، والإقلاع عن الذنب، والعَزم على أن لا يعود إلى ذنب ، والتحلل من مظالم الناس قبل ألا يكون دينارٌ ولا درهم، وإنما الحسنات والسيئات، كما قال ﷺ: «**أَخَذَ هَذَا مِن حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِن حَسَنَاتِهِ، حَتَّى إِذَا فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ أُخِذَ مِن سَيِّئَاتِهِم فوُضِعَ عَلَى سَيِّئَاتِهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»[1] ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لذلك ينبغي على المرء التحقق بالتوبة بينه وبين ربه، وكذلك الخروج من المظالم بينه وبين الناس، والإصلاح فيما بينه وبينهم، لأن فساد ذَاتِ البَينِ كما جاء في الحديث: «**هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ وَإِنَّمَا تَحْلِقُ الدِّينَ**»[2] **فكيف يَدْخل رمضان وقد حَلَق دِينَه؟** كيف يَدخل يريد المغفرة، وهو متحمل بالذنوب والمعاصي والمظالم والآثام؟

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٣٤ ، رقم ٨٣٩٥) ، ومسلم (٤/١٩٩٧ ، رقم ٢٥٨١) ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ». قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ وَلاَ مَتَاعَ. فَقَالَ: « إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ »).

(٢) أخرجه أحمد (٦/٤٤٤). والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٩١) ، وأبو داود (٤٩١٩) والترمذي (٢٥٠٩) وقال: هذا حديث صحيح. وقال المنذري (٤/٣١): إسناده جيد. ولفظه (دب إليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء ، هي الحالقة ، لا أقول : تحلق الشعر ولكن تحلق الدين ، والذي نفسي بيده ! لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أخبركم بما يثبت ذاك لكم ؟ أفشوا السلام بينكم).

لذلك كانت التوبة أهمَّ ما يدخل المرء به رمضان، فإنه **إن دَخَل رمضان بالتوبة خَرَج من رمضان بالتوبة**، فإذا بدأ بالتوبة وحصَّل بعد ذلك القيام، إذا به يخرج وله قيام مع الله تعالى، ويخرج وله صيام مع الله تعالى، يخرج وله ذكرٌ مع الله تعالى، يخرج وله قرآن مع الله تعالى، يخرج وله حالٌ حسنٌ مع الله تبارك وتعالى، له قُرَبٌ وطاعة، وله شوقٌ وحنينٌ إلى ربِّه وطاعتِه، **أما إن دخل بالمعصية خَرج بالمعصية، وإن دَخل بالتقصير خَرج بالتقصير**. وهي الحال التي بسببها يحدث العَوْد بعد رمضان إلى السيرة السيئة قبل رمضان إلا أن تدرك المرء رحمة الله تعالى بسبب آخر.

ثانيًا: جهاد الصيام بالنهار وجهاد القيام بالليل

وهو معنى قول النبي ﷺ: «**الصِّيَامُ وَالقُرآن يَشْفَعَانِ لِلعَبدِ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: مَنَعْتُهُ الشَّرَابَ والطَّعَامَ فِي النَّهَار فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ القُرْآنُ مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيلِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ : فَيُشْفَعَانِ**»[1]

١. جهاد الصيام بالنهار:

بأن يستوفي المرء في هذا النهار صيامه الذي به تتحقق المغفرة والعتق من النار، وهو الصيام الذي يمنع الصائم فضول الكلام، والسماع، والبصر، والمكاسب

(١) أخرجه أحمد (١٧٤/٢ ، رقم ٦٦٢٦) ، والطبراني كما في مجمع الزوائد (١٨١/٣) وقال الهيثمي رجال الطبراني رجال الصحيح . وقال في (٣٨١/١٠) : رواه أحمد ، وإسناده حسن على ضعف في ابن لهيعة وقد وثق . وأبو نعيم في الحلية (١٦١/٨) ، والحاكم (٧٤٠/١ ، رقم ٢٠٣٦) وقال : صحيح على شرط مسلم .

المحرمة، ويمنعه الشهوات من الطعام والشراب والنكاح، وقبل ذلك بأن يمنعه هذا الصيام من المحرمات والشهوات، ثم يكون سببًا لإقباله على ربه ﷻ بالأذكار والطاعات. فإذا استكمل المرء شروط هذا الصيام، التي يُكفِّر الله تعالى بها الخطايا، كان صومه سببًا للمغفرة وكذلك سببًا لشفاعته لصاحبه يوم القيامة.

وذلك لأن مثل هذا الصوم يكون سببًا لإقبال المرء على ربه سبحانه وتعالى واستقامته على أمره، وترقيه إلى الله تعالى، وسببًا لخلوص قلبه ونقاء نفسه، والخروج من رمضان بهذه المغفرة والرحمة، والعتق من النار وإلا ضُرب به في وجههِ كما ذُكِر في الصلاة ويقال له: «**ضَيَّعَكَ اللهُ كَما ضَيَّعتَني**»(١).

لذلك فإن رمضان لم يأت ليمنع المرء نفسه الطعام والشراب في النهار، ثم إذا أفطر إذا به يعوض ما كان !! ثم إذا جاء إلى سحوره يزداد تخمة، ويصبح ممتلئًا كأنه في يوم فطره !! فلا يكن يوم فطره ويوم صيامه سواء، لا في أكله ولا في شربه ولا في نو مه ولا في شهواته ولا في غفلته.

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي (١ / ٨٠)، والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٦٣)، والبيهقي في الشعب (٣ / ١٤٣). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٢٥/٢): فيه الأحوص بن حكيم وثقه ابن المديني والعجلي وضعفه جماعة وبقية رجاله موثقون . ولفظه (إذا أحسن الرجلُ الصلاةَ فأتمَّ ركوعَها وسجودَها قالت الصلاةُ حَفِظَكَ اللهُ كما حَفِظْتَني فَتُرْفَعُ وإذا أساء الصلاةَ فلم يتمَّ ركوعَها ولا سجودَها قالت الصلاةُ ضيعك اللهُ كما ضيعتني فَتُلَفُّ كما يلف الثوب الخَلِق فَيُضْرَبُ بها وجهُهُ).

النبي ﷺ لم يكن كذلك، بل إنه كان إذا أتى أهله فلم يجد طعامًا وشرابًا قال: إني صائم[1]، وهو على خلاف أحوالنا اليوم، **فنتعارك ونتشاجر و ينتظر كل منا الأصناف المعدودة ليأكلها ويمتلئ بها**، حتى إذا جاء القيام جاء متأخرًا، حتى إذا دخل القيام فإنما هي ألعاب رياضية ليهضم بها ما أكله في فطره، لا، وإنما كان ﷺ على عكس ذلك كله إذا لم يجد الطعام والشراب يقول: إني صائم، فلم تكن القيمة للطعام والشراب إذن. وللصيام فوائد مهمة نوجزها فيما يأتي:

١. **تضييق مجاري الشيطان لتزكية النفس**

فالصيام من أهم اسباب **تزكية النفس وصفائها ؛ لأنه يضيق مجاري الشيطان**؛ فالشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم؛ بمعنى أنه يوسوس له ويحمله على الغفلة، وعلى البعد والتكاسل عن الطاعة، وعلى البخل بماله ونفسه، ويزين له الوقوع في المعصية والوقوع في المكروه، وهو ملازم له لا يفتر عنه ولا يمل من إغوائه .

والصيام يسد المنافذ التي يدخل منها الشيطان، ويجري فيها من ابن آدم، فيضيِّق تلك المجاري حتى إذا **خرج المرء من رمضان ضاقت مجاري الشيطان في جسمه وفي قلبه وفي بدنه وكان أقل اتباعًا للشيطان**، وكان أقل اتباعًا لوسوسته وخطره؛

(١) رواه مسلم (١٥٨/٣ ، رقم ٢٧٧٠) ولفظه (عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ - رضي الله عنها - قَالَتْ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- ذَاتَ يَوْمٍ « يَا عَائِشَةُ هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ ». قَالَتْ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ. قَالَ « فَإِنِّي صَائِمٌ ».).

وقل ذلك في نفسه، فزادت معاني الطاعة والإيمان والإقبال على الله وخفت في قلبه المعاني السيئة التي يعانيها، فيكون ذلك سببًا لعدم انتكاس الحال بعد رمضان.

إن ترك الطعام والشراب سبب عظيم من أسباب التفرغ للطاعة والذكر؛ وذلك لخلو المعدة؛ فالمعدة إذا امتلأت نامت الفكرة، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

وانظر إلى ما يحدث إذا امتلأت المعدة ! أول شيء يفكر فيه المرء أن يقوم إلى النوم والكسل، وأن يترك الطاعة والعبادة، أو أن يقوم للشهوات، أليس كذلك؟ كل ذلك بسبب امتلاء المعدة.

لذلك كان الصيام في رمضان فرصة المرء **لتقليل طعامه وشرابه في إفطاره وسحوره** ؛ فيخرج من رمضان وقد تخلص من مألوفاته السيئة في الأكل والشرب، ليعتاد بعد ذلك على تفريغ وقته للذكر والعبادات والطاعة.

٢. **تخلية القلب للذكر والفكر**

فترك الطعام والشراب يخلّي القلب للذكر والفكر، وهي المسألة التي يفتقدها المؤمنون اليوم في رمضان، وبعد رمضان، وهي من أعظم مسائل الإقبال على الله تعالى ومحبته أن يكون المرء دائم الفكر دائم الذكر.

ودائم الفكر: يعني متفكر في أحواله، ومعاده، وما هو مقبل عليه من رحيله إلى الله، متفكر في أخلاقه وآفاته، يريد أن يتخلص منها، متفكر في عباداته التي قصر فيها، والتي امتلأت بالوساوس والخطرات، وامتلأت بالبعد عن الإقبال على الله

وحسن مناجاته وحسن الوقوف بين يديه، متفكر فيما يصلح نفسه ومعاده، وفيما يكون سببًا لمعرفته بربه ومحبته، متفكر في أسمائه وصفاته، متفكر كذلك في قيامه لربه يوم يقوم الناس لرب العالمين.

فإذا ما تفكر المرء في أسماء الله وصفاته، وتفكر في معاشه ومعاده، وتفكر في رحيله وموته وقبره، وتفكر في بعثه ونشوره ووقوفه بين يدي الله تعالى، وتفكر في آفات نفسه وقلة عمله، وقلة زاده كان ذلك التفكر سببًا لزيادة الإيمان والبعد عن العصيان، وسببًا لتذكر الموت والقبر والحساب، وسببًا لتذكر الأهوال والوقوف بين يدي الله تعالى.

كل ذلك يكون دافعًا له إلى المسارعة إلى الله تعالى وإلى البعد عن المعصية والخوف من الله وإلى إحسان الطاعة والبذل فيها، وكذلك لدوام فكره فيما يعود عليه بخير معاشه ومعاده.

وكذلك فإنه إذا ما تفكر المرء في أسماء الله وصفاته فإنه يوحِّد ربه، ويحبه، ويخافه، ويرجوه، ويدعوه، ويتقرب إليه، حتى يكون حظه من الله تعالى الأهم له في الأولى والآخرة.

أما الذكر -فلا تسأل عنه - فإذا فرغ المرء قلبه للذكر، فإنه حينئذ يكون كما قال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢] وكفى بهذه فائدة في ترك المرء لطعامه وشرابه، ليحقق هذا الحال مع ربه سبحانه وتعالى.

تراه يحقق ذلك في يوم صيامه، ثم بعد الإفطار يعود مرة أخرى إلى ترك الفكر والذكر وترك تلك الدرجات العالية التي هي الأصل في معرفة الله تعالى ومحبته؟

نحن محتاجون للتحقق بهذا المعنى من رمضان وبعد رمضان، وإلا فبماذا نخرج من رمضان؟

٣. تذكر الفقراء والمساكين

بأن يكون الجوع والعطش تذكرة لنا بمن طال جوعهم وعطشهم، فنواسي إخواننا وعباد الله الصالحين، ونكرمهم ونُدخل عليهم السرور، وذلك من أفضل الأعمال والتي كان حاله ﷺ عليها: «**كَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يُدَارِسُهُ جِبْرِيلُ الْقُرْآنَ**».[١]

٤. انكسار النفس لله تعالى

وهو ما نختم به هذه الفوائد المختصرة، فالصيام وترك الطعام والشراب والشهوة، وباقي أعمال رمضان من قيام وذكر، **تكسر حدة النفس وشره النفس، وبطر النفس وأشر النفس**، وهو من أهم أسباب انقياد المرء لربه وزيادة تقواه.

---

(١) رواه البخاري (١/٦، رقم ١٣٠٨)، ومسلم (٧/٧٣، رقم ٦١٤٩). ولفظه (عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ؛ إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ كَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ فِي رَمَضَانَ حَتَّى يَنْسَلِخَ، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- الْقُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ).

فهذه النفس التي تميل إلى الأشر والبطر، وإلى الكبر والعلو، وإلى الكسل والبطالة، وإلى النوم والراحة، فذلك كله أحب إليها من الطاعة والقرب، كان الصيام سببًا عظيمًا من أسباب كسر هذه النفس لله تعالى، **فتصير نفسًا خاشعة مطمئنة متواضعة مخبتة، تسارع إلى الطاعة وتسارع إلى المغفرة، وتتواضع للرب سبحانه وتعالى، وتخشع له** ،فيستكين القلب والجوارح لمحبته وطاعته وتبتعد بذلك عن معصيته، فما أقرب هذا العبد من الله تعالى، هذا العبد المتواضع الخاشع المنكسر الذليل لله تعالى أقرب العبيد إلى الله تعالى؛ لأنه هو المسمى بهذا الاسم؛ بالعبودية لله تعالى، والصيام أعظم ما يكون سببًا في كسر النفس، وإبعاد بطرها وأشرها، ورجوعها إلى سكونها وخشوعها وتواضعها وذلتها لله تعالى، إذا سار على تلك الآداب التي أشرنا إلى شيء منها ؛ فإذا ما كانت كذلك، **كانت من أسرع وأحب النفوس إلى الله تبارك وتعالى، فخرجت عن كبرها وعن عجبها، وعن رؤيتها لنفسها، وعن قوتها وعن مالها** ، خرجت من كل ذلك إلى حول الله وقوته سبحانه وإلى مدد الله تعالى ورحمته.

إن عاقبة هذا الجوع والعطش ستعود عليك في الدنيا والآخرة، فهي سبب لتحصيل المغفرة في الدنيا ، وسبب التنعم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ **كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ** ﴾ [الحاقة: ٢٤] لَمَّا لم يأكلوا في الدنيا، ولم يطل أكلهم ولم تعظُم شهواتهم وغفلتهم وتخمتهم وقعودهم عن العبادة والطاعة قيل لهم: ﴿ **كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا** ﴾ ، بما صُمتُم، بما جُعتُم، بما عطشتم لله تعالى.

٢. جهاد القيام بالليل، سهراً لله تعالى:

إن هذا القرآن قد أنزله الله تعالى لرحمة العباد، ولنور قلوبهم، وأعمالهم، ولبركتهم، وشفائهم، وهدايتهم، ولتبيين طرائِقهم إلى الله جل وعلا.

فإذا كان للمرء قيام يصليه قبل رمضان، فإذا جاء رمضان ينبغي الازدياد من هذا القيام ؛ لأنه بإتيان رمضان تغير الحال وازدادت المجاهدة، وازدادت العبادة، وازداد التقرب إلى الله تعالى، ولم يقف عند الحد الذي كان فيه، ولكن قد تغير حاله ليكون سببًا للمغفرة.

وكما جاء في الحديث **فالقرآن لا يشفع لك حتى يمنعك النوم، فتقوم سهراً لله تعالى**، وتَصُفّ قدميك كما كان الصحابة يصفون أقدامهم حتى يتكئون على العصي من طول القيام، وكانوا يقرءون بالمئين من الآيات، وقد فعلوا كل ذلك وهم المقربون، وهم السابقون الأولون .

أما نحن ، فنأخذ بأقل القليل ونتنافس على أقله، حتى أن من يصلي بجزء من القرآن في الليلة، فكأنه قد أتى بما لم يأت به أحد! لماذا نرضى بأقل الحظ من ذلك القيام؟ هل كان الصحابة أحوج منا لذلك القيام الطويل؟ لماذا إذن نزهد فيه؟ إن سبب ذلك الزهد أننا جمعنا تفريطًا وأمنًا، وجمعوا هم-رضوان الله عليهم- إحسانًا وخوفًا.

إن القيام بجزء من قرآن، أقل ما ينبغي أن يكون عليه أهل الإيمان قبل رمضان، فإذا جاء شهر المغفرة والعتق من النار، فإنه ينبغي أن يكون الحال هو حال المجاهدة التي تكون سببًا لتحصيل المغفرة.

وانظر لحديث النبي ﷺ: « اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ» (١) وكذلك حديث سمرة بن جندب أن النبي ﷺ : « رَأَى فِي مَنَامِهِ رَجُلاً مُضَّجِعًا عَلَى قَفَاه، وَرَجُل قَائِم عَلَى رَأسِه بِفهر أَو صَخرَة، فَيشْدَخ بهَا رَأسه، فَإِذَا ضَرَبَه تَدَهْدَه الحَجَر، فَانطَلَق إِلَيهِ لِيَأْخُذه فَلَا يَرْجِع إِلَى هَذَا حَتَّى يَلتَئِم رَأْسه وَعَاد رَأْسه كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيه فَضَرَبَه.. فَسَأَلَه عَنهُ.. فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُ رَجُلٌ عَلَّمَه الله القُرآن، فَنَامَ عَنهُ بِاللَّيلِ وَلَم يَعْمَل بِه بِالنَّهَار، يُفعَل بِهِ إِلَى يَومِ القِيَامَة» (٢).

وكذلك يقول النبي ﷺ فيما صح عنه : « إن القرآن يَلْقى صاحِبَه يوم القيامة حين ينشَقُّ عنه قبرُه كالرجل الشاحب يقول: أَتَعْرِفُنِي؟ فَيَقُول مَا أَعْرِفُكَ فَيَقُول: أَنَا الَّذِي أَظْمَأْتُ مِنْكَ الْهَوَاجِرَ، وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ رَجُلٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ، والْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، ويُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكسَى وَالِدَيْهِ حُلَّتَين لَا

(١) رواه مسلم (١/٥٥٣ ، رقم ٨٠٤) ولفظه (عن أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ: « اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ »).

(٢) رواه البخاري (١/٤٦٥ ، رقم ١٣٢٠) ، ومسلم (٤/١٧٨١ ، رقم ٢٢٧٥) من حديث طويل رواه سمرة بن جندب ﷺ.

تَقُومُ لَهُمَا الدُّنيَا فَيَقُولَان: بِمَ كُسِينَا هَذَا ؟ فَيُقَال: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا القُرآن ثُمَّ يُقَالُ: اقْرَأْ، فِي دَرَجِ الْجَنَّةِ وَغُرفِهَا، وَهُوَ فِي صُعُود، مَا دَامَ يَقرَأُ هَذَا كَان، أَو تَرتِيلاً »(١).

وقوله أيضا: :«وَيُؤْتَى بِالرَّجِلِ الصَّالِحِ قَدْ حَمَلَ الْقُرْآنَ، وَحَفِظَ أَمْرَهُ؛ فَيَتَمَثَّلُ خَصْمًا لَهُ؛ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ حَمَّلْتَنِي إِيَّاهُ؛ فَنِعْمَ حَامِلٌ حَفِظَ حُدُودِي، وَقَامَ بِفَرَائِضِي، وَلَمْ يَرْتَكِبْ مَعْصِيَتِي، واتَّبَعَ طَاعَتِي، فَمَا يَزَالُ يُقِيمُ لَهُ الْحُجَجَ حَتَّى يُقَالَ: شَأْنَكَ بِهِ؛ فَيَأْخُذَهُ حَتَّى يَدْخُلَ بِهِ الْجَنَّةَ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ.... إلى آخر الحديث»(٢). وقد جاء موعد تحقيق ذلك.

وعلى العكس كما قال: « يَمثُلُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلَا؛ فَيُمْسِكُ بالرَّجُلِ الَّذِي قَدْ حَمَلَ الْقُرْآنَ، وَقَدْ خَالَفَ أَمْرَهُ؛ فَيَتَمَثَّلُ خَصْمًا لَهُ؛ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ حَمَّلْتَنِي إِيَّاهُ؛ فَبِئْسَ حَامِلٌ تَعَدَّ حُدُودِي، وضَيَّعَ فَرَائِضِي، ورَكِبَ مَعْصِيَتِي، وَتَرَكَ طَاعَتِي؛ فَمَا يَزَالُ يُلْقِي عَلَيْهِ بِالْحُجَجِ حَتَّى يُقَالُ لَهُ: شَأْنَكَ بِهِ؛ فَيَأْخُذُهُ مِنْ يَدِهِ؛ فَمَا يَدَعُهُ حَتَّى يَكُبَّهُ عَلَى مِنْخَرِهِ فِي النَّارِ» (٣) .

(١) أخرجه أحمد (٥/٣٥٢ ، رقم ٢٣٠٢٥) ، والدارمي (٢/٥٤٣ ، رقم ٣٣٩١) ، والحاكم (١/٧٤٧ ، رقم ٢٠٥٧) وقال : صحيح على شرط مسلم ، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/٣٤٤ ، رقم ١٩٨٩) من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٥ / ٣٤٨) من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه.

(٣) انظر الحديث السابق.

ترى لو قام المرء رمضان كله من أوله إلى آخره ما الذي سيحدث له؟ سيحدث لكده كل خير ولا شك !

وعلى العكس، ترى لو وقع البلاء بالمرء ماذا كان يصنع ليرفع عنه ذلك البلاء؟ تراه يقول: أقف على رجل واحدة ويرفع البلاء؟

ونحن ليس في هذا الحال، وإنما في حال المحبة والإقبال والبذل لله تعالى، **فما الذي يضيرنا إن وقفنا لله تعالى ثلاثين ليلة ؟** لقد كان أحدهم إذا نام عن ورده ليلة واحدة يعاقب نفسه بقيام سنة كاملة لا يرقد فيها !!

لم يبق لأهل الإيمان عذر في أن يقوموا لله، ويتعبوا جسدهم هذا التعب الذي فيه راحتهم، **فهو ليس تعبًا على الحقيقة وإنما ذلك نعيم هذا الجسد**، وسعادته وسروره وقرة عينه في أن يكون بينه وبين ربه ذلك السرّ، وأن يكون بينه وبين ربه تلك المحبة .

عاهد كل أحد ربه جل وعلا أنه من اليوم سيبذل كل وقته لله تعالى، كل جهده لله تعالى، كل ماله لله تعالى، **لن يبخل بشيء**؛ لأن أي شيء إنما يبذله، فإنما يبذل من عطاء الله الذي آتاه، يبذل من صحته التي أعطاه، يبذل من جهده ووقته وعمره الذي منحه إياه سبحانه وتعالى.

ثالثًا: التقوى

فالتقوى أهم أسباب تحقيق المغفرة، كما أشرنا في الكلام عن قيمة المغفرة، في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الأنفال:٢٩]. والصوم مرتبط أشد الارتباط بتحقيق التقوى، بل أن الصوم شرع لتحصيل تقوى الله تعالى ، كما جاء في قوله جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

ونشير أولًا إلى بعض **آثار التقوى** كما وردت في آيات الله، فمن ذلك **أن التقوى هي سبب النجاة في الأولى والآخرة، وسبب قبول الأعمال، وسبب هداية الله تعالى**. ففي الدنيا ينجِّي الله تعالى المتقين إذا وقع البأس، كما قال: ﴿ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [النمل: ٥٣]. أما الآخرة فكلها لهم كما قال: ﴿ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٥]، وقال: ﴿ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴾ [مريم: ٦٣].

والتقوى أيضًا هي سبب النجاة من النار، كما قال المولى سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ [مريم: ٧١ - ٧٢]، ثم ولاية الله تعالى إنما هي لأهل التقوى، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّ

﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩]، وقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، فالأولياء هم المتقون.

وفي النهاية ، كان القبول من نصيب المتقين، كما قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، **لا يتقبل من غيرهم**، وذلك ما يهمنا في رمضان ، ثم إن النجاة في الأولى والآخرة لهم، وولاية الله تحوطهم فهم أولياؤه.

لذلك يبين لهم المولى جل وعلا سبُل التقوى، ومن هذه السبل سبيل الصيام، الذي شرعه لهم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] .

لذلك كان النبي ﷺ ما تحب أن تراه صائمًا إلا رأيته، كان يصوم حتى نقول ما يفطر[١]، وكان يصوم الاثنين والخميس[٢]، وكان يصوم ثلاثة أيام من كل شهر[٣]، وكان يقول: «**خَيْرُ الصِّيَامِ صِيَامُ دَاوُدَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا**»[١] ، وكان إذا

---

(١) رواه البخاري (١١٤١) ولفظه (عن أَنَسٍ رضِي اللَّه عَنْهُ، قالَ: كَانَ رسُولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم يُفطِرُ منَ الشَّهْرِ حتَّى نَظُنَّ أَنْ لا يصوم مِنهُ، ويصَومُ حتَّى نَظُن أَن لا يُفْطِرَ مِنْهُ شَيْئًا، وَكانَ لا تَشَاءُ أَنْ تَراهُ مِنَ اللَّيْلِ مُصَلِّيًا إِلا رَأَيْتَهُ، وَلا نَائمًا إِلا رَأَيْتَهُ).

(٢) رواه الترمذي (٧٤٥) وقال: حديث حسن، ولفظه (عَنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا، قَالَتْ: كانَ رسولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم يَتَحَرَّى صَوْم الاثْنَيْنِ وَالخَمِيسِ).

(٣)رواه البخاري (١١٧٨) ومسلم (٧٢١) ولفظه (عنْ أَبي هُريرةَ رَضي اللَّه عنْهُ، قال: أوصَاني خَليلي صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم بصِيامِ ثَلاثَةِ أَيّامٍ مِن كُلِّ شهر، وركْعَتَي الضُّحَى، وأَنْ أُوتِرَ قَبل أَنْ أَرْقُد).

دخل على أهله فلم يجد طعامًا نوى الصيام صلى الله عليه وآله وسلم[٢]، وكان يصوم من صدر الشهر، وكان يصوم شعبان إلا يومًا أو يومين [٣] صلوات الله وسلامه عليه، وكان يصوم ستًا من شوال[٤] فكأنه يصوم الدهر كله صلوات الله وسلامه عليه، وما ذلك إلا لتحقيق هذه المعاني والآثار من آثار التقوى، التي أشرنا إليها سريعًا.

رمضان هو شهر التدريب على التقوى

وشهر رمضان هو الأخص في هذا الأمر، فإذا كانت التقوى لها هذه الآثار التي أشارنا إلى بعضها في كلام الله تعالى، والتي طبقها النبي ﷺ في الصيام؛ فإن **الله تعالى قد جمع هذه المعاني من معاني التقوى في شهر رمضان**، فكأنه أمرهم بالصيام الذي أشرنا إليه في مختلف أوقاتهم، ثم بعد ذلك **جاءهم هذا الشهر ليكون التركيز**

---

(١) رواه الإمام البخاري في صحيحه (١٩٧٧) كتاب الصوم ، ومسلم في صحيحه (١١٥٩).

(٢) رواه مسلم (١٥٨/٣ ، رقم ٢٧٧٠) ولفظه (عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ - رضي الله عنها - قَالَتْ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- ذَاتَ يَوْمٍ « يَا عَائِشَةُ هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ ». قَالَتْ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عِنْدَنَا شَيءٌ. قَالَ « فَإِنِّي صَائِمٌ ».).

(٢) رواه أحمد (٢٠١/٥)، وابن أبي شيبة (٣٤٦/٢ ، رقم ٩٧٦٥) ، والنسائي (٢٠١/٤ ، رقم ٢٣٥٧) والضياء (١٠٨/٤ ، رقم ١٣٢٠). وأورده المنذري في الترغيب والترهيب (١٣٠/٢) وقال: إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما، ولفظه (عَنْ أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - : قال : «قلتُ : يا رسول الله لم أرَكَ= = تصوم من شهر من الشهور ما تصومُ من شعبان ؟ قال : ذاك شهر يَغْفُلُ الناسُ عنه بين رجب ورمضانَ ، وهو شهر تُرفَع فيه الأعمال إلى ربِّ العالمين، فأحبُّ أن يرفع عملي، وأنا صائم).

(٤) رواه مسلم (١١٦٤) ولفظه (عَنْ أَبِي أَيوبَ رضِيَ اللَّه عَنْهُ، أَنَّ رسول اللَّهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم قَالَ: « مَنْ صَامَ رَمَضانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كانَ كصِيَامِ الدَّهْرِ).

الشديد في أعمال التقوى ؛ ليخرجوا منه على هذه الحال التي يحبها الله لهم في الأولى والآخرة، وليحققوا هذه الآثار التي ذكرها المولى سبحانه وتعالى، ليخرجوا مقبولين، ليخرجوا متقين، ليخرجوا أولياء الله الصالحين.

والمعنى المهم: أن الله تعالى لم يفتح باب الصيام في رمضان لتحقيق التقوى، وفي سبيل ذلك يمنع عن المرء الشهوات من الطعام والشراب والمنكح، ليكون تقيًا، ثم بعد رمضان وعندما ينتهي الصوم، يترك التقوى ويرجع فيها !

المعنى إذن، أن الله تعالى قد فتح هذا الباب من أبواب التقوى حتى تكون **التقوى شعار رمضان وما بعد رمضان، فهو سبحانه لا يريد المرء أن يكون تقيًّا في رمضان ثم بعد رمضان يعود إلى اللهو والغفلة والبعد وإلى الإقبال على الدنيا والوقوع في الشهوات.**

لا شك إذن أن هذا الشهر بما ذكر فيه من معاني وأعمال الإيمان إنما جاء ليكون **تدريبًا للمؤمنين على أعمال التقوى في هذا الشهر**، ولتصفو به قلوبهم ونفوسهم، وتتحقق فيهم هذه الشرائط في شهر رمضان وبعد رمضان، فهو سبحانه وتعالى يريدهم متقين في كل وقت، وإنما جاء رمضان **ليكون الشحنة التي إذا أخذها المؤمنون وتحققوا بها كانت العافية لهم بقية عامهم**، حتى يأتي موسم آخر يزدادون فيه من أعمال التقوى، وهكذا في الترقي إلى الله، ليمر منه المرء بنجاح؛ فإذا به يرى

أسباب وآثار هذا النجاح بعد رمضان في إقباله وعوده إلى الله تعالى عودًا حميدًا، وفي ذكره وطمأنينته وسكينته لله تعالى. فهلا حقق المرء ذلك في رمضان؟

والمشكلة التي بدأنا بها الكلام، أن المرء ما أن ينتهي رمضان حتى يعود كل شيء إلى ما كان، بعدًا وجفاء وزهدًا في الآخرة وإقبالاً على الدنيا ووقوعًا في الشهوات إلى غير ذلك مما نراه **ما أن ينتهي رمضان حتى ينزل المؤمنون إلى أسوأ مما كانوا فيه قبل رمضان فيفتقدون بذلك التحقق بالتقوى** التي كانت هدفهم ومقصدهم من رمضان.

فإذا قلنا: إن التحقق بالتقوى هو مقصود الصوم فإن السبب في ذلك **أن مقصود الصوم أن يخرج المرء عن عبودية الطعام والشراب والجسد الفاني، وعن الراحة،** وأن تتغير أحواله التي قد شملتها الغفلة والبعد، واشتملت على محبة الدنيا والميل إليها ونسيان الآخرة والرحيل إلى الله تعالى، إلى محبة الله، والإقبال عليه والزهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة، والاستعداد للقاء الله تعالى، فيظهر ذلك في شوقه إلى العبادة، ومحبته لها وحنينه إليها، ، وإنه إن قطعه شيء عنها إذا به حزين ومتألم، ويرى أنه قد فقد حظه من ربه، أو قَلَّ حظه من ربه سبحانه وتعالى، وهو الحظ الذي لا يعادله شيء في هذه الحياة الدنيا.

لذلك كان ينبغي أن يكون هذا المعنى من معاني الصيام حاضرًا في عقول المؤمنين وأذهانهم، **كيف تتحقق صفات التقوى، وكيف يكون الصيام هو السبيل لتحقيق ذلك،** كيف يكون رمضان بالأخص هو الذي تتغير فيه تلك الأحوال؟ **كيف يخرج**

المرء من رمضان تقيًا، قد ظهرت عليه علامات التقوى، وعلامات المغفرة، وعلامات العتق من النار، يخرج أكثر إقبالاً على الله تعالى، أكثر زهدًا في الدنيا، أكثر استقامةً على أمر الله تبارك وتعالى، أكثر محبةً وقربًا لربه، أكثر محافظةً على أمره ونهيه جل وعلا، أكثر رقة في قلبه، ودمعة في عينيه، وخشوعًا في بدنه، ظاهره وباطنه، ليدل بذلك أنه قد غُفِرَ له، أو أنه قد رُحِم، أو أنه قد أعتق من النار، يخرج أفضل مما كان محبةً وذكرًا وأُنسًا بالله وشوقًا إلى لقائه.

رابعًا: الوفاء بالعهد مع الله تعالى

والوفاء بالعهد من المعاني المرتبطة بالتقوى، فإنه كما جاء في آية البر في سورة البقرة، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٧٧] فكان الوفاء بالعهد من جملة أعمال البر التي وصف الله تعالى أهلها بالتقوى.

وعلاقة ذلك برمضان، أن الكثير من أهل الإيمان، عندما خرج من رمضان قبل ذلك، إذا به يتحسر على ما مضى منه، وذلك لأنه لم يشعر أنه قد غفرت ذنوبه وخطاياه، أو تخففت أثقاله وسيئاته، فأخذ العهد مع الله تعالى: **في رمضان القادم سأكون أفضل، سأستعد له وأبدأ من أول يوم**، ، سأحسن الصيام والقيام، وسأقضي ما مضى من الاعتكاف، وسأهيئ نفسي – إن شاء الله تعالى – لهذه المغفرة ولذلك العتق من النار.

وها قد جاء رمضان، جاء موعد الوفاء بالعهد الذي قد أخذه المرء على نفسه لله تعالى أنه سيكون أفضل، وأنه سيبذل قصارى جهده لتحصيل هذه المغفرة، وسيخرج من اللهو واللعب ومن التكاسل والتواني، ومن ضعف العزيمة وخمود الهمة إلى اجتهاد زائد، ومجاهدة النفس والهوى والشيطان حتى يكون أهلاً لمغفرة الله له، وأنه سيري الله تعالى من نفسه ما كان قد قصَّر فيه من قبل، وأنه سيوفي بذلك ولو على حساب نفسه وماله وبدنه ووقته وجهده وراحته؛ لأن المغفرة أعلى وأجل وأعظم، وأن المرء مهما بذل في تحصيلها، فإنه لا شك لم يبذل شيئًا يوازيها ولا يدانيها.

جاء إذن موعد الوفاء الذي قد حدَّده الناس لأنفسهم، ليبدأوا ما يكون سببًا لفرح الله بهم، وتوبة الله عليهم، وإنزال رحمته بهم سبحانه وتعالى، فهلا جهز المرء نفسه لهذا الوفاء، وهلا أعدد المرء وقته وجهده لتحصيل ذلك ؟ أم أنه سوف يبدأ رمضان بهذه البداية التي تُنذر بنفس النهاية التي قد كانت من قبل؟

هل تأمن أن يعود عليك رمضان آخر؟

فقد علم المؤمنون أنهم **يوشك أن يرحلوا إلى الله تعالى**، وأنهم بين لحظة وأخرى يكونون عند ربهم، وأنه يمكن أن يكون المرء من أهل الآخرة؛ فيستفتح يومًا لا يكمله، أو يستفتح ليلةً لا يتمها؛ فيكون في غَده عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ **اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ** ﴾ [الحشر: ١٨]. وأنه كان يمكن للمرء وقد عاهد الله تعالى في العام الماضي أن يكون في هذا العام أحسن، و أشد إقبالاً على الله تعالى، وأحب إليه سبحانه وتعالى، وأعظم بذلاً وجهدًا لله تعالى، وهو لا يدري أنه

قد كتب في أهل الآخرة، فلا هو قد وصل رمضان الذي أمَّل، ولا هو قد حصل المغفرة في رمضان الماضي ! كان يمكن أن يكون الأمر كذلك، وقد رأى المرء إخوانه يؤخذون، فلا يفرِّق الموت بين صغير وكبير.

والمؤمنون لا يودون أن يلاقوا الله تعالى على مثل هذه الحال التي هم عليها ؛ لذلك دخلوا رمضان هذه المرة وهم مصممون أشد التصميم، وعازمون أشد العزم على ألا يفوتهم من أول يوم، وألا يقصروا في لحظة من لحظاته، وأن يقضوا نهارهم وليلهم ينتظرون رحمة الله، وهم يعملون لمغفرة الله سبحانه وتعالى، فقد أتاهم رمضان، أتاهم موعد حلول الدَّيْن الذي في أعناقهم.

هم قد أخذوا على أنفسهم تلك المواثيق: أنهم سيُبدون لله تعالى أفضل أعمالهم من توبة، وعمل صالح، ومن قيام، ومن صيام، ومن ذكر، ومن قرآن، وسيرفعون ما حدث بينهم وبين ربهم من الجفاء والبعد، وما نزل عليهم منه من الحرمان والفقر من عطائه وفضله وقربه وتقريبه سبحانه وتعالى.

والأمر الثاني الذي يخوف المرء اليوم أنه لا يأمن الحرمان، فإن الله تعالى إذا رأى من المرء تقاعسه وتكاسله، **وعلم أنه لا يأخذ الأمر بجد، ولا يهتم بمغفرة الله تعالى ولا يبذل لها ولا يُضحِّي من أجلها شيئًا ؛ يحرمه منها فيُمنع المغفرة.**

هو لا يريدها ؟ هو متكاسل عنها ؟ هو لا يبذل لها ؟ هو لا يقدر قيمتها ؟ إذن حُرم إياها !

أما أن يكون المرء قد عزم العزم الأكيد اليوم فها قد جاءه ذلك الموعد، فتح الله له هذا العام، وفتح له أبواب المغفرة، وما زال يأمل في وجهه الكريم ألا يحرمه إياها، وألا يغلق بابه دونها لذلك دخل بهذا الأمل، فصمم على أن يحقق هذا الرجاء في وجه الله تعالى.

خامسًا: الخروج عن العادات والمألوفات

وهو من أهم أسباب التي ينبغي أن يهتم لها المرء لتحقيق المغفرة، وذلك لأن عادات المرء ومألوفاته تأسره وهو لا يدري ولا يشعر، فإذا جاءه رمضان، وأراد التحقق بأسباب المغفرة، وجد هذه العادات والمألوفات قد قطعت عليه الطريق. كيف؟ إن أراد القيام الطويل جاءه اعتياده على النوم والراحة ليمنعه هذا القيام الذي هو سبب المغفرة والتنعم بالوقوف بين يدي الله تعالى. وكذلك الاعتكاف إن عزم عليه، جاءته مألوفاته في الأكل والشرب ودورة المياة والملبس وكذا وكذا، فتمنعه عن هذه العبادة أيضًا !

فلما جمع الله تعالى في شهر رمضان أسباب التحقق بالمغفرة التي لها قيمتها، كان ينبغي للمرء الخروج عن أحواله التي هو فيها ليحقق هذه المغفرة، **فيخرج عن عوائده ومألوفاته في نومه وشربه وأكله، وفي كلامه وفي عمله وفي جوارحه ليحقق المغفرة.**

فالمرء الذي يريد المغفرة، والعتق من النار تنعكس في هذا الشهر أحواله وتتغير، **فهل لو كانت أحواله كما هي كما كانت قبل رمضان ولم يغير من هذه المألوفات، تُرى ذلك صدقًا في تصميمه على تحقيق المغفرة؟**

إن حال المؤمن الصادق في طلب المغفرة على غير ذلك، فما أن يأتي رمضان، إذا به يغيِّر طريقة نومه، **فقلل من هذا النوم، وقلل الأكل والشرب والنكاح والشهوة وقلل الكلام، وقلل الإقبال على الخلق، والاستئناس بهم،** وزاد في أعمال الطاعة والذكر والإقبال ووسع على المحتاجين، وبذل الصدقة، وبذل الإحسان، وبذل من وقته وجهده ليحصل المغفرة، فإذا به قد انقلبت أحواله، وخرجت هذه الأحوال عن المألوف؛ **لأنه شهر غير مألوف في أعمال المؤمنين،** فلا بد أن يتحمل فيه المرء هذه المجاهدة، لتكون دليلاً على تصميمه التحقق بالمغفرة.

ويعين المرء على الخروج من عادته ومألوفاته قضية من أخطر القضايا التي تتعلق بالمغفرة في رمضان، وهي قضية الاحتساب.

سادسًا: الاحتساب

والأصل في قضية الاحتساب حديث النبي ﷺ: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[1] وقوله: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ**

(١) سبق تخريجه.

مِنْ ذَنْبِهِ »[1] وقد ورد العديد من المعاني للاحتساب، فقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: الاحتساب: طلب الثواب من الله تعالى. وقال الخطابي في معنى الاحتساب في الصيام: احتسابا أي: عزيمة، وهو أن يصومه على معنى الرغبة في ثوابه طيبة نفسه بذلك غير مستثقل لصيامه ولا مستطيل لأيامه.

والمعنى الذي نريد الوصول إليه، والمتعلق بتحقيق المغفرة هو : **هل احتسب المرء في رمضان من الأعمال والبذل من ماله وجهده ووقته ، واحتسب شيئًا من محبة الله فقدمها على جميع المحاب ، فإذا به لما احتسب كان ذلك سببًا للمغفرة ؟**

ونوضح ذلك بالآتي: أن المرء قبل رمضان كان له ورد من القرآن، فلما أتى رمضان ولأنه يقوم الليل، إذا به يقول: أنا أقوم الليل، فيقصر في ورد القرآن، لماذا؟ يقول: لأني سأسمع القرآن في القيام، وسأقف لله تعالى، فإذا به يقصر في التلاوة !

وكذلك الأذكار، فإذا قام ليله، أصبح مقصرًا في أذكار الصباح، ثم مقصرًا في أذكار المساء، أو مقصرًا في الصلاة، وقدم النوم لأنه قد قام الليل، فوضع أذكاره التي كان محافظًا عليها !

أو أنه بسبب الصيام والتعب والمشقة المزعومة التي يعانيها في هذا الصيام، إذا به قد قصر في بقية الأعمال، من القيام بمصالح للمسلمين، أو من القيام بأشغاله وأعماله في معاشه، وإذا به قد فرط في هذه الأمور، وحُجة ذلك أنه قد سهر لله، أو أنه قد صام، أو أنه قد بذل، فهو في مقابل هذا القيام لا يستطيع أن يقوم بتلك الأمور !

---

(١) سبق تخريجه.

ولأنه يصوم ويتعب، فإذا به قد امتلأت معدته من الطعام والشراب والألوان المختلفة التي لم يكن يأكلها قبل ذلك، **وكان المرء في مقابل عبادته لله تعالى يأخذ أجره أكلًا وشربًا**، ويزيد من حظه في تلك الأنواع التي يود أن يلتهمها، وكأنه قد فعل من العبادة ما لم يأت به أحد، فيريد أن يعوض ذلك بهذا الفاني الزائل !

وكذلك القيام، فيأتي إليه متأخرًا ، ليس مشمرًا له، ولا متقدمًا ولا مسارعًا، ولا مقبلاً عليه، ولا محبًا له، بل يأت وهو متململ من القيام، يحاول أن يأتي متأخرًا حتى يفوته شيء من القيام الطويل لله تعالى، وذلك لأنه يعمل في النهار، فينام بعد صلاة العشاء، حتى إذا ضاع جزء من القيام الذي يود به المغفرة، ويريد به تحصيل الرحمة، والعتق من النار، إذا به يقوم متلكئًا متكاسلاً، يصل متأخرًا؛ ليصلي شيئًا لله تعالى !

بمعنى أدق، فإن نفس المرء تميل به إلى أنه إن صام وقام ..فرط في الباقي، فلا يبالي حينئذ أن يقصر في باقي أعمال الإيمان، وأن يفرط في بقية الأعمال، وأن ينام عن كثير منها وهو مطمئن لا يهمه؛ وكأنه قد وصل إلى الذروة العليا من الأعمال الصالحة، والدرجة التي لا يصل إليها أحد مع الله تبارك وتعالى، فكانت هذه الدرجة سببًا في أن يفرط ويعطي نفسه حظها !

تُرى بهذه الحالة التي صورنا جزءاً منها ، يحقق المرء معنى الاحتساب الذي أمر به النبي ﷺ ليكون سببًا للمغفرة ؟

إن رمضان لم يأت ليكون المرء على حاله الذي كان عليه قبل رمضان وما زاد فيه إلا أن يصوم ويقوم، ثم يقصر في بقية الواجبات، ولكن الاحتساب في رمضان: أن يخرج المرء عن مألوفاته، وعوائده، وعما كان فيه من أكل، ونوم، وشرب، وراحة،

وميل إلى الولد والزوجة، واختلاط بالخلق والتكسب من أشغال الدنيا وما فيها، ولكن يخرج من ذلك كله **يحتسبه عند الله تعالى**، ويصبر على هذا الاحتساب الذي يود به المغفرة.

فرمضان قد جاء لتزداد من أعمال الإيمان، فإذا بالمرء يجتهد من أول يوم ليحقق هذا المعنى، وذلك لمحبته وشوقه لهذه الأيام من أيام الرحمة والمغفرة، فلما قال ﷺ: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(١) دل ذلك على لزوم المحبة لتلك الأعمال، ودل كذلك أن أهل الإيمان ينتظرون بفارغ الصبر أن تأتي لهم هذه الليالي ليزدادوا فيها قربًا ومحبة لله تعالى، لا ليُروا فيها ربهم تقصيرهم وتفريطهم ومللهم من عبادتهم لله تعالى، أين الاحتساب إذن؟ متى يحتسب المرء تَرك نومه وراحته؟ متى يحتسب مشقته وتعبه يومه كله؟ متى يحتسب محافظته على ذكره وأوراده وعباداته؟

تُرى الله تعالى يكافئ هؤلاء المجتهدين، المحتسبين، الذين يهتمون بالتبكير والمسارعة لأن يقوموا لله تعالى، ويقفوا له، ويبكوا بين يديه، ويتدبروا آياته، ويحزنوا إذا تأخروا عن ربهم سبحانه وتعالى، **تراه يكافئهم من المغفرة بما يكافئ المتأخرين المتلكئين المتكاسلين**، الذين قدموا نومهم وأكلهم وشربهم وراحتهم، ثم لما وجدوا وقتًا باقيًا قاموا ليصلوا وردًا صغيرًا من ليلهم، أين الاحتساب إذن ؟

فمربط الفرس، أن رمضان لا يأت ليكون سببًا في بعدك عن ربك، لأن نوايا عدم الاحتساب والتأخر والتكاسل التي نعامل بها رمضان، لا تحقق المغفرة، وإنما

(١) سبق تخريجه

المغفرة معلقة على الاحتساب، كما قال ﷺ: « **مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ** »[1] «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[2].

ونوضح معنى يعين المرء على تحقيق هذا الاحتساب، وهو: أن الله جل وعلا **إن كنت في شغله كان سبحانه وتعالى في شغلك**، وأنك إن حفظت ربك حفظك ربك سبحانه وتعالى، فإذا ما جاء رمضان حفظت هذا المعنى.

فلا يقول المرء أبدًا: غدًا عندي شغل، أو أنني مسافر، فسأنام هذه الليلة ! سأصلي ركعتين فقط من القيام وأذهب إلى البيت لأنام، حتى أذهب مبكرًا إلى عملي. لا، حينئذ، تذكر هذا المعنى الذي يعينك على الاحتساب: أقبل على الله تعالى وانشغل به الانشغال الذي يدل على عبوديته لله، وتعلقه به، وحسن توكله عليه، وثقته فيه، فإن الله تعالى يحفظ لك أشغالك، فإنك في رمضان تصبح إذا أصبحت على هذا الخير وإذا أمسيت على هذا الخير الذي وطدت عليه نفسك، وصبرت عليه نفسك، وقدمت له مالك، وقدمت له شغلك، وقدمت له جهدك، وقدمت له وقتك، وتركت له نفسك وأهلك وولدك، فإنك **إن اشتغلت بشغل الله تعالى فإن الله يكفيك**، وحفظ لك أشغالك هذه كلها، ولن تحس فيها بالتعب الذي تنتظره؛ لأن الله تعالى إذا أقبل بك إلى العبادة، وتلذذت بها، فكانت هذه العبادة سبب قوتك ومددك، ليس سبب فشلك، ولا سبب تقصيرك وبعدك.

إذا تحقق المرء بمعنى الاحتساب لله وهو يقوم بالعبادة فإنه يأخذ المدد من الله

---

(١) سبق تخريجه

(٢) سبق تخريجه

تعالى، فيوفقه سبحانه وتعالى ويسدده، ويكون له، ويعينه، ويفتح له الأبواب المغلقة، وييسر له الأمور العسيرة، التي يظن أنها لن تأتي إلا بالنوم، وبالراحة، وبالشغل، وبالعمل، وبترك أعمال الإيمان، وبترك تلك القربات والطاعات.

إن المرء إذا لم يتحقق بهذه القضية لن يصل إلى الله تعالى، إذا لم يتحقق أن يقينه لا بد أن يكون على الله جل وعلا، لا على النوم، ولا على الأكل والشرب، ولا على قوته وجهده، ولا على علمه وفهمه، ولا على جاهه ومنصبه، ولا على ماله وثروته، حينئذ يخرج من الزائل إلى الله، لذلك قال: ﴿ **وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا** ﴾ [الفرقان: ٥٨]، فإذا ما توكلت عليه توكلت على الحي الذي لا يموت، فتوكل عليه حينئذ في هذه الأمور إذًا يكفيك كما قال: ﴿ **أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ** ﴾ [الزمر: ٣٦].

هل لا يستطيع المولى جل وعلا أن يكفي عبده الفقير الحقير الذي لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياتًا ولا نشورًا ؟! كيف يترك المرء ربه القادر وينظر إلى الزائل الذي لا يغني عنه شيئًا، ولا يقويه شيئًا، ولا يدفع عنه شيئًا، وإن جاء الموت تركه ليقابل ربه وحيدًا فريدًا إلا من عمل قدمه لله تعالى !

ترى المرء يذهب إلى الله تعالى ثم يجيئه من وراء ذلك الضرر ؟ أو يجيئه الفشل وترك المعاش؟ أو يجيئه ما يتخيل من تخيلات الشيطان ووساوس النفس؟ كلا، ليس ذلك كرم الله تعالى، ولا جوده، ولا حسن معاملته لعباده الذين يحسنون معاملة ربهم، ولكنه سبحانه إذا أحسن إليه عباده أحسن إليهم، إذا أطاعوا تقرب إليهم، إذا تقربوا إليه تقرب إليهم أكثر مما تقربوا إليه، إذا بذلوا مالاً مما جعلهم مستخلفين فيه

عوضهم أكثر منه وأنفق عليهم أفضل منه، وأعلى منه، وأكثر منه، وأجل منه، وأعظم منه ، وهكذا.

علمت أن اليقين ليس على النوم، قواك بغير نوم سبحانه وتعالى، علمت أن اليقين ليس على المال ولا على الجاه، إذا به يغنيك ويغني نفسك، ويوسع لك طريقك، وييسر لك أمورك، ويرفع عنك همومك، وإذا بك امرئ آخر مع ربك جل وعلا، **فما الذي يخيف المرء ويجعله لا يحتسب** ؟ الله تعالى يطلب منه الاحتساب فيما أعطاه حتى يغفر له، إذا بك يبخل بما أعطاه ولا يعطيه لربه حتى لا يزيده ! كما قال: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

لعل ذلك المعنى قد وصل إلى أهل الإيمان فعقدوا عهدهم مع الله تعالى من هذه الساعة التي هم فيها أن يسارعوا إلى الاجتهاد في تحقيق ذلك، وألا يقصروا فيه، وأن يعلموا أنه من سار إلى الله تعالى بالصدق والإخلاص؛ فإن الله تعالى يفتح عليه، ويقويه ويؤيده، ويمده بمدده؛ فلا يتململ ولا يزيغ، ولا يتبع الشهوات، ولا يغلبه شيطانه وهواه؛ لأن الله تعالى قواه وحفظه، و دافع عنه، وأمده، حينئذٍ كان الله له، **ومن كان الله له فمن يكون عليه ؟!**

سابعًا : الصبر

والصبر من المعاني المتعلقة بتحقيق المغفرة في رمضان تعلقًا أكيدا، فرمضان شهر الصبر، والله تعالى يريد من عباده في شهر رمضان أن يصبروا له سبحانه وتعالى، ويُصَبّروا أنفسهم، فيصبر المرء نفسه على ترك امرأته الحسنة وغطاءه الدافئ، وترك

كسله، و كذلك ترك ما يحب من أنواع الأكل والشرب والنوم والأنس بالناس والسعي وغير ذلك.

والعكس هو الذي يظهر اليوم في أعمالنا، **فندخل الصلاة، والقيام، والعقل مشغول بأن ننتهي سريعًا حتى نذهب إلى المصلحة الفلانية**، وحتى ندرك السحور، وحتى ننتهي من كذا. كيف يكون المرء في صلاته وعبادته على حال الاستعجال وعدم الصبر على الله تعالى؟ وانظر إلينا ونحن في القيام: متى ينتهي القيام؟ نريد إدراك المواصلات، والسحور، والنوم، حتى نذهب إلى العمل، وحتى نفعل كذا وكذا ؟ فتضيع علينا الصلاة، ويتشوش القلب، ولا نحسن الإقبال على الله تعالى ! **وذلك لأننا في الصلاة منشغلون بما بعد الصلاة، وهو الحال السيئ الذي يفسد الصلاة**. وانظر ماذا قال النبي ﷺ: «**صَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ**»[1] وانظر إلى صلاة المودع للدنيا، التي أقبل فيها على الله، وتاب فيها إلى ربه، واستغفره، وختم عمره بالعمل الصالح، وبكى إلى الله جل وعلا أن يختم له بأحسن الخاتمة.

المشركون قالوا: ﴿ **أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ** ﴾ [ص: ٦] فكان المشركون يوصون بعضهم بعضًا أن يصبروا على ما يراد بآلهتهم، وأن يتحملوا شيئًا حتى تنزاح هذه الغمة التي نزلت عليهم من توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة سبحانه وتعالى!

---

١ - رواه أحمد (٤١٢/٥ ، رقم ٢٣٥٤) ، وابن ماجه (٤١٧١). وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٣٢٨/٧): أخرجه ابن ماجه، وللحاكم نحوه من حديث سعد بن أبي وقاص، وقال صحيح الإسناد. ولفظه (عَنْ أَبِي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم- قال: «إذا قمتَ في صلاتِك فصلِّ صلاةَ مودعٍ، ولا تكلم بكلام تعتذر منه غدًا، واجمع الإياس مما في أيدى الناس»).

والمؤمنون لا نراهم كذلك: أن امشوا واصبروا على ربكم، **أين صبر المرء على الله تعالى؟** أين احتسابه للأجر والثواب إذا كان يدخل العبادة وهو يريد الخروج منها، ولا يصبر نفسه فيها، ولا يقبل فيها على ربه سبحانه وتعالى، ولا يثبت قلبه لله جل وعلا، ولا يركن إلى الله تعالى فيها ؟

فليُصبر المرء نفسه، ويعلمها أن تصبر لله، وأن تركن إلى الله تعالى، وتثق فيه، وتتوكل عليه، فيحاول تأدية عبادته كأنها آخر العبادة، فإذا بها عبادة لها آثارها النافعة، ولها ثمرتها وعاقبتها الحسنة التي تظهر على إقبال المرء على الله تعالى.

أما أن يكون متعجلاً على ربه، غير متريث في وقوفه بين يديه، فإذا ذهنه مشوش، وقلبه مختل مضطرب، وإذا به لا يقبل على صلاته، ولا يتفكر فيها، وإذا به غير ثابت مع ربه، غير راكن له، غير مصبر لنفسه على الإقبال له سبحانه وتعالى، ويرى في نفسه هذه العجلة وذلك التهور ليخرج من بين يدي ربه !

إلى أي شيء يخرج المرء من بين يدي ربه سبحانه وتعالى!! إلى أي شيء أفضل يخرج! كيف يحصل إذًا محبة الله تعالى؟ إذا كان واقفًا بين يديه وهو يريد أن يخرج، فهل هذه عبادة؟! هل هذا هو الإقبال على الله تعالى؟!

انظر إلى قول الله جل وعلا : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨] وملخصها: واصبر نفسك مع الذين يدعون الله تعالى ليلاً ونهارًا، **اصبر نفسك مع هؤلاء لا مع غيرهم**، فلا يتعجل المرء ولا يشغله شيء عن هذا العمل، ولكن: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ

﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ المخلصين لربهم في ذلك، المقبلين عليه، المحبين له، الذين لا يفرطون في محبته وعبادته، ولا يستثقلون هذه العبادة، ولا يملون منها، فإنه كما ذكر النبي ﷺ: «وَاللهُ لا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا»[1]، فإن دخل المرء صلاته بهذا الملل، وهذه الروح التي تبين أن المرء ما زال بعيدًا عن تحصيل المغفرة، وعن تحصيل العتق من النار، لأنه ليس على هذه الحالة من حالات التصميم على تحصيل المغفرة، والعزم الأكيد عليها ، ولا يريد أن يتعب نفسه لله التعب الذي فيه راحتك ليقوم القيام الذي فيه رضوان الله تعالى وإقباله عليه.

لذلك قال بعد ذلك : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ وانظر إلى الغفلة التي شملتنا، واتباع الأهواء. مَن الذي يسير على أمر الشرع، ويلتزم به، ويقتدي برسوله ﷺ، ويقدم محبته على جميع المحاب، وليس بينه وبين قول الله ورسوله إلا أن يقول: سمعنا وأطعنا؟

فالصبر إذن هو الحال الذي قد أمر به المولى سبحانه وتعالى، وأشار به النبي ﷺ، وما علينا إلا أن نقوم به، وألا نفرط، وألا نقصر، وأن نقبل علي الله تعالى إقبالاً نود به رحمة الله، ومغفرة الله، ورضوان الله، وأن يعتقنا الله جل وعلا من النار.

---

(١) رواه البخاري (٢/٦٩٥ ، رقم ١٨٦٩) ، ومسلم (٢/٨١١ ، رقم ٧٨٢) ولفظه (عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- حَصِيرٌ وَكَانَ يُحَجِّرُهُ مِنَ اللَّيْلِ فَيُصَلِّى فِيهِ، فَجَعَلَ النَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلاَتِهِ وَيَبْسُطُهُ بِالنَّهَارِ، فَثَابُوا ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دُووِمَ عَلَيْهِ وَإِنْ قَلَّ». وَكَانَ آلُ مُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم- إِذَا عَمِلُوا عَمَلاً أَثْبَتُوهُ).

وإن صبر المرء على بذل الوقت والجهد لله تعالى، بورك له في ذلك كله، فالوقت وقته، والمال ماله، والجهد جهده، وكل شيء هو له، له الملك، وله الحمد، له ما في السماوات وما في الأرض، سبحانه وتعالى، فإن أقبل المرء عليه وأقبل على خزائنه يستفتح منها ويأخذ منها، فإن الله تعالى لا يبخل على عبده بشيء من ذلك، بل يزيده منه، فهي خزائنه، إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، ﴿ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون: ٧].

فكل شيء أنت محتاج إليه وقفت به على باب الله تعالى، حتى يقضيه لك، ولكن حقق في نفسك تلك الأسباب التي بها يعطيك الله جل وعلا، ويستجيب دعاءك سبحانه وتعالى، ويخرجك بها عن اليأس والقنوط في وجه الله تعالى، فاليأس والقنوط والتقصير والتفريط وعدم الصبر يغلق في وجه المرء باب الله تعالى ، أما الصبر والشكر فهو الطريق لأن يكون المرء من عبيد الله المقربين وأوليائه الصالحين، الذين يستجيب الله دعاءهم، كما قال سبحانه: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠].

صبِّر نفسك ، واحذر وقوف الشيطان لك قائلًا: وراءك موعد، ووراءك إفطار اليوم عند فلان، ووراءك كذا، ووراءك كذا، حاول هذه المرة، وأغلق كل هذه المواعيد، وكل هذه الأشغال، واتجه لأحوالك وأشغالك وعباداتك.

إن أطاع المرء الشيطان اليوم، أطاعه غدًا؛ لأنه غدًا لم يحصل شيئًا من الأعمال الصالحة التي يدفع بها عنه الشيطان، ولم يحصل ما يكون سببًا أن يكون في الغد أحسن من اليوم، بل من قد فرط اليوم، وعرف الشيطان طريقه، فغدًا يسلك نفس الطريق ليضيع عليه ليلته ويومه.

وفي النهاية قد يسأل السائل ماذا نفعل؟ ليس هناك وقت وليس هناك جهد، وليس هناك، وليس هناك، ما الحل؟ حل مشكلتك أن تعود إليه سبحانه وتعالى، فالجهد الذي لا ترى له قيمة، والوقت الذي لا ترى له بركة، والأشغال التي استغرقت أوقاتك فلم يبق لك وقت لتعمل شيئًا في الآخرة ولا في الدنيا، وكل الذي نشكو منه ، حله في أن نكون أقرب إلى الله. فإنه لا يزيد هذا الوقت بركة، ولا هذا الجهد وهذا المال بركة إلا أن نقبل على الله تعالى، إذ هو صاحب المال، وصاحب المباركة فيه سبحانه وتعالى، وصاحب كل شيء، ومالك كل شيء، وملك كل شيء سبحانه وتعالى، لذلك نرجو ذلك كله منه سبحانه وتعالى.

وقد رأينا أنه قد بارك وقت وجهد الأولين عندما أخلصوا نواياهم، وأقبلوا على ربهم، وانشغلوا بآخرتهم، ولم يكن لهم شغل إلا ربهم، فبارك لهم في أوقاتهم وجهدهم وعمرهم، سبحانه وتعالى، فعملوا في تلك المدة القصيرة ما لم يعمله الأولون ولا الآخرون إلى أن تقوم الساعة.

فإذا ما وقف المرء يدعو ربه ويتضرع إليه، ويستغل وقته وأنفاسه، فلا يضيع منها شيئًا في غير مصلحة، أحس ببركة ذلك، ووجد وقته وقد اتسع، وعمره وقد زاد؛ لبركة ما حل من ذلك بسبب القرآن الكريم، وبسبب العبادة لله، والذكر والانشغال به،

بسبب الإخلاص لله جل وعلا، والصدق في الإقبال عليه سبحانه وتعالى،
ببركة أن تعرف قيمة الزمن، وسرعة الرحيل والقدوم على الله جل وعلا.

الفصل الثاني:

حال المؤمنين في رمضان

- طوال الشهر
- أحوال العشر الأواخر
- أحوال الخروج من رمضان

طوال رمضان؛ شكر نعمة بلوغ رمضان

فبلوغ رمضان نعمة عظيمة تستوجب مواصلة الشكر ، وكان السلف الصالحون على هذا الحال، فإذا وفقه الله تعالى لقيام ليلة أصبح صائمًا شكرًا لله على توفيقه لقيام هذه الليلة، والشكر سبب الزيادة من هذه النعم: ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ﴾ [إبراهيم: ٧] فهو سَبَبٌ لمزيد الله لك، وإقبال الله عليك، ومدد الله سبحانه وتعالى لك.

ويبين ذلك حديث رؤية طلحة رضي الله عنه: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « كَانَ رَجُلان مِن بلي مِن قُضَاعَة أَسْلَمَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَاسْتُشهِدَ أَحدُهُما وأُخِّر الآخَرَ سَنَة ، قَالَ طَلْحَةُ بنِ عُبَيدِ الله : فَرَأيتُ المُؤخَّرَ مِنْهُمَا أدخِلَ الجنَّة قَبل الشَّهيد ! فَتعجَّبتُ لِذَلِكَ ! فأصْبَحْتُ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ للنَّبي ﷺ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « **أَلَيسَ قَد صَامَ بَعْدَه رَمَضَان ؟! وَصَلَّى سِتَّة آلاف رَكْعَة؟! وَكَذَا وَكَذَا رَكْعَة صَلاة سُنَّة ؟**»[1] قد أبقاه الله تعالى هذه السنة التي أُخِّر فيها عن أخيه الذي استشهد، فإذا به في هذه السنة **بسبب صيامه وصلاته قد ارتفعت درجته فوق الشهداء**، وعلت منزلته على الذي استُشهد في سبيل الله؛ لما كان له في هذه السنة من الأعمال الصالحة، ومنها شهود رمضان، **فكيف يشكر المرء ربه على أن فتح له ذلك**.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣٣٣/٢، رقم ٨٣٨٠) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٣٩/١٠): رواه ابن ماجه وأحمد وإسناده حسن.

وذلك أول ما ينبغي أن يفكر المرء فيه، أن أوصله إلى هذه الرحمة، **ولأنه مما يثبت هذه النعم ويفتح بها رحمة الله تعالى أن أول ما يفكر المرء فيه هو شكر النعمة**، أنه فتح في عمره هذا الموسم، لأن المرء ليتمنى إذا مات أن يرجع إلى الدنيا يومًا واحدًا يتوب فيه إلى الله تعالى ويستغفره ويعمل صالحًا كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ** ﴾ [المؤمنون: ٩٩- ١٠٠] ، لذلك ينبغي التفكر الآن في كيفية شكر الله تعالى الذي أوصل المرء إلى هذا الموسم سليمًا معافًى، يرجو رحمة الله، ويأمل في مغفرته وينتظر عفوه ويطلب رضوانه، ويرجو أن تعتق رقبته من النار في هذا الشهر الكريم.

أولا : القيام حتى تتشقق قدماك :

لقد كان النبي ﷺ هو العَلَم والقدوة على شكر الله تعالى، عندما قام الليل حتى تشققت قدماه من طول القيام ولمَّا قالت له السيدة عائشة قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: « **أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا** »[1].

فكان **يشكر الله تعالى بطول القيام**، يشكر الله تعالى بالإقبال عليه، وبمناجاته وتلاوة آياته، والتدبر فيها، بالخشوع له، بالخضوع، بإتعاب هذا الجسد الفاني لله تعالى، فهذا الجسد الذي نخاف عليه اليوم سوف يفنى، ويصير إلى التراب غدًا، ولا

---

(١) رواه البخاري (٤/١٨٣٠ رقم ٤٥٥٦) ومسلم (٨/١٤١ رقم ٧٣٠٤) ولفظه (عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفَطَّرَ رِجْلاَهُ قَالَتْ عَائِشَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ فَقَالَ « يَا عَائِشَةُ أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا »).

ينفعنا عندما نصير إلى التراب إلا تلك الطاعات التي فعلناها وإلا تلك القربات التي قدمناها، فكما قيل يذهب مع المرء ماله وعمله وولده فيرجع ماله وولده ويبقى له عمله، ليدخل معه قبره[1].

لذلك كان شكر النبي ﷺ في هذه الأحوال أن يقوم لله تعالى حتى تتشقق قدماه، حتى تتورم قدماه، حتى تنتفخ قدماه من طول القيام، وذلك شيء على الحقيقة كما ورد به الحديث[2].

وشكر هذه النعم يكون من جنسها قد أتاك رمضان فشكر النعمة في طول القيام فيه، في إكثار التعبد مع تعظيم آداب الصيام والإقبال فيها، من كثرة الذكر وقراءة القرآن كما قال تعالى: ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ** ﴾ لذلك كان **الإكثار هو المطلوب في هذه الأيام صيامًا وقيامًا وذكرًا وتعبدًا وقراءة للقرآن، وبذلاً للمال والصدقة**، وكذلك إقبالاً على النفس محاسبة لها وتوبة من ذنوبها، وكذلك إقبالاً على النفس، تصحيحًا لنياتها، وتصحيحًا لأعمالها، وإقبالاً عليها خروجًا من آفاتها من حقدها وغلها وحسدها وطول أملها في الدنيا وحرصها على الدنيا وركونها إلى الشهوات والغفلة ونسيان الآخرة

---

(١) رواه البخاري (٥/٢٣٨٨ ، رقم ٦١٤٩) ومسلم (٤/٢٢٧٣ ، رقم ٢٩٦٠). ولفظه (عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « يَتْبَعُ الْمَيِّتَ ثَلاَثَةٌ: فَيَرْجِعُ اثْنَانِ، وَيَبْقَى وَاحِدٌ، يَتْبَعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ ».).

(٢)سبق تخريجه قريبًا.

والرحيل والزهد في الآخرة، ينبغي أن يطمئن قلبه بذكر الله تعالى، وأن تصلح جوارحه على السير إلى الله تعالى، وأن يخف بدنه لطاعة الله تعالى فلا يستثقل هذه الطاعة، ولكن يتحقق بقوله ﷺ: « **أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»[1].

فيصاحب شكر نعمة رمضان، شكرك لله تعالى أن فتحت لك هذه المنزلة العالية التي هي فوق منزلتك لو كنت قد استشهدت العام الماضي.

انظر إلى تفاوت هذه الدرجات! لو استشهد المرء العام الماضي لكان العمل الصالح في هذه السنة أفضل وأعلى وأجل في مرتبته عند الله تعالى من تلك المنزلة! ألا يستوجب ذلك شكرا ؟ فما بالنا نتكاسل وقد خرجنا من رمضان الماضي ولم نحصل منزلة ولا استشهادا ولا شيئا من ذلك !

وحتى يكون المرء شاكرًا لله تعالى على الحقيقة فإن قيامه الذي يقوم به لله سبحانه وتعالى لا بد أن يكون على أحسن الحال، **يكون قيامًا طويلاً تتشقق فيه قدماه، وهو مسرور بذلك يدعو ربَّه ويتملقه ويتدبر آياته، يقبل عليه بالمحبة والركون إليه**، فهو ليس تعبًا على الحقيقة بل هو التنعم بهذه الطاعة، والتلذذ بهذه القربى لله تعالى، والتلذذ بتلك المناجاة كما قال ﷺ: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ**»[2].

---

(١)سبق تخريجه.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (١٣٦٢٣) والنسائي (٣٩٤٠) وحسنه ابن حجر في فتح الباري (٣٥٣/١١) وصححه ابن القيم في زاد المعاد (٤٥/١) والحاكم (١٧٤/٢ ، رقم ٢٦٧٦) وقال : صحيح على شرط مسلم. ولفظه (عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - : قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : «حُبِّبَ إِلَيَّ : الطِّيبُ ، والنساء ، وجُعِل قُرَّةُ عَيْنِي في الصلاة»).

إن قضية الشكر وقضية الحزم، وقضية الإصرار على تحقيق أقصى الطاعة ليحقق المغفرة ينبغي أن تكون في مهمات المؤمنين اليوم، يبينها إقبالهم ومحبتهم وسرعتهم واستجابتهم لربهم سبحانه وتعالى، وأن ينتفي من قلوبهم **البخل بالمال والوقت على الله تعالى وكذلك التململ من الصيام والقيام**، وهو يقف بين يدي ربه، بين يدي واهبه سبحانه وتعالى، بين يدي محبه جل وعلا .

طوال رمضان : الجود

وعلاقة ذلك برمضان أن الصدقة في رمضان يتضاعف أجرها [1] كما يتضاعف أجر بقية الأعمال؛ لذلك كان رسول الله ﷺ كما ورد عنه في رمضان: « **وكان أجودَ ما يكون في رمضانَ حين يُدارِسُه جبريلُ القرآنَ** »[2]

فإذا ما اجتمعت الصدقة مع الصيام، كان ذلك من الأسباب التي يغفر الله تعالى بها الخطايا، ويكفر بها الذنوب، ويرفع بها الدرجات، وكذلك من الأمور التي يقبل بها الصيام، ويجبر بها الخلل.

لذلك كان أهل الإيمان حريصين أن تكون صدقاتهم مع الصيام ليكون ذلك سببًا لزيادة الأجر، ولمضاعفة الثواب خاصَّة لشَرف الزمان الذي هم فيه؛ فما كان يأتيهم زمانٌ ذو شرفٍ.

---

(١) أخرجه أحمد (٤٧٧/٢ ، رقم ١٠١٧٨) ، ومسلم (٨٠٧/٢ ، رقم ١١٥١). ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– « كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلاَّ الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِى بِهِ؛ يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِى، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ. وَلَخُلُوفُ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ »).

(٢) رواه البخاري (٦/١ ، رقم ١٣٠٨) ، ومسلم (٧٣/٧، رقم ٦١٤٩). ولفظه (عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ؛ إِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ كَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ سَنَةٍ فِي رَمَضَانَ حَتَّى يَنْسَلِخَ، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– الْقُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جِبْرِيلُ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– أَجْوَدَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ).

فيبذلوا لهذا الزمان أكثر من بذلهم في غيره ينتظرون مضاعفةَ الأجر فيه،

ينتظرون مضاعفة الثواب فيه، كل همهم في الدنيا، كيف يحصلون رضا الله تعالى؟ كيف يحصلون الدرجات العالية عنده؟ كيف يحصلون النعيم المقيم؟ كيف يسابقون غيرهم إلى الله؟ كيف يكون حزنهم أن يَسبقهم أحد إليه ﷻ؟

فلم يكن حالهم كيف يتسابق في الدنيا، ويحصلها، ويحزن لفقدها، ويخاف أن تنقص منه، ناسيًا آخرته، غافلاً عن لقاء ربه ﷻ غافلاً عن أنه يمكن أن يرحل إلى الله في يومه أو في غَدِه، ويمكن أن ينتقل إلى الدار الآخرة، ولم يحصل من شهواته شيئًا، وكذلك لم يحصل من رضا ربه ما يكون سببًا في تبييض وجه: ﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ** ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وكانت الفائدة الثانية في اقتران الصدقة بالصيام: أن الله تبارك وتعالى **في رمضان يُوسع على عباده بأنواع الرحمة، والمغفرة، والعتق من النار، فإذا وَسَّع العباد على بعضِهم كان ذلك سببًا أنْ يتفضل عليهم**، وذلك كما قال النبي ﷺ: « **إِنَّمَا يَرحمُ اللهُ مِن عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ** »[1].

فإذا كان العباد رُحماء ببعضهم البعض، وزادوا في صدقاتِهم، وإحسانِهم، يرجون بذلك الرحمة، وجادوا على إخوانهم، يجود الله تعالى عليهم، فكان هذا المعنى

(١) أخرجه البخاري (٦٢٧٩)، ومسلم (٢١٧٤) من حديث أسامة بن زيد ﷺ.

من أنهم يكثرون من هذه الصدقات جُودًا على عباد الله تعالى، ينتظرون جُود الله تعالى بها؛ **فهمَا جادوا على عباده جادَ عليهم سبحانه وتعالى، ووَسَّع عليهم بمغفرته،** وفضله، ورضوانه، وعوضهم، وأَخلف عليهم في صدقاتهم.

ومن فوائد الصدقة مع الصيام أيضًا: أن **الصدقة إذا اجتَمَعت مع الصيام كانت مُوجِبًا من موجِبات الجنة**؛ يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَدَامَ الصِّيَامَ وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَام**»[1].

وهذه الأربعة تتحقق في رمضان: القيام، والصيام، والصدقة، وطيب الكلام؛ لأن النبي ﷺ نَهى الصائم عن اللغو والرفث، نهاه عن ذلك حتى يكون سببًا لطيب كلامه، وحسن معاملته، كما قال تعالى: ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾ [البقرة: ٨٣] .

لذلك لم يكن هذا الحال الحسن ليمر على النبي ﷺ إلا وينبهه عليه، فقال لأصحابه: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ صَائِمًا؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُم اليَومَ جَنَازَةً؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُم اليَومَ مِسْكِينًا؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا، قَالَ: فَمَنْ عَادَ مِنْكُم الْيَوْمَ مَرِيضًا؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا !!، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[2].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٣٣٧) والترمذي (١٩٨٤)، وصححه الحاكم في المستدرك (١٢٠٠) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٢٤/٢): رواه أحمد والطبراني في الكبير وإسناده حسن.

(٢) أخرجه مسلم (١٠٢٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فما اجتمعت الصدقة والصيام وتلك الأعمال من أعمال البر، إلا كانت مُوجِبةً من موجبات الجنة، وسببًا من أسباب تحصيل رضا الرب مع: ﴿ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

وكذلك **اجتماع الصدقة مع الصيام أبلغ في تكفير الخطايا والسيئات**، كما يقول النبي ﷺ: «وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ».(١)

ثم إن الصيام الذي نصومه - كما تعلمون - قد امتلئ بالخلل، والنقص، والغفلة، والشهوات والوسوسة، وامتلئ باللغو من الكلام وغيره من الأفعال القبيحة التي تَصدر من باطن المرء وظاهره، وكل ذلك ينقص أَجرَه، **فتأتي الصدقة لتجبر هذا الخلل في الصيام** حتى لا يكون ذلك سببًا في ألا يقع به الرحمة والمغفرة.

لأن النبي ﷺ لَمَّا قال: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا» (٢) والمراد صيامه صومًا كاملاً، صومًا لا يشُوبه شيءٌ، حتى يكون سببًا لتكفير السيئات، وسببًا لغُفران الذنوب والخطايا، ليس صومًا يَلعب فيه، ويغفل فيه، ويُكثر فيه من اللَّغو والرَّفث، والمكروهات أو الخطايا، وغير ذلك من الأحوال التي لا ينبغي أن يكون عليها

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/٣٢١ رقم ١٤٤٨١) والترمذي (٢/٥١٢ ، رقم ٦١٤) وقال : حسن غريب . وأخرجه الطبراني (١٩/١٠٥ ، رقم ٢١٢) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/٤٤٥) : رواه أحمد والبزار ورجالهما رجال الصحيح.

(٢) رواه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠)، ولفظه (عن أَبي هُرَيرةَ رضيَ اللَّه عنهُ، عن النَّبِيِّ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم قالَ: « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا واحْتِسابًا، غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذنْبِهِ »).

الصائم من الذِّكر والإقبال، والوقار والسكينة، وكذلك من صفاء النفس والروح، والمسارعة إلى الطاعة، وعدم التَّعَلُّل بالصيام في أن يسوء خلقه، وأن يخرج منه الألفاظ التي لا ينبغي أن تخرج من الصائم، بل على العكس، الصيام يهذب نفسه، ويهذب جوارحه، ويقمع شهواته، ويقربه إلى ربه - سبحانه وتعالى - فكانت أهمية الصدقة أن تجبر خلل هذا الصيام ليكون سببًا لتكفير السيئات والخروج بالمغفرة.

لذلك كانت قضية الجود - في رمضان وغير رمضان - من القضايا المهمة التي ينبغي أن يفهمها المؤمنون، وهذا الفهم ينبني على مسألة واحدة: أن هذا الدين لا تصلح له النفوس الشحيحة البخيلة الحريصة، **فهذه النفوس غير الصالحة في نفسها لا تصلح لإقامة الدين في غيرها**، فهذه النفوس التي تشح بالبذل، والوقت، والمال، والجهد على الله، إنما هي في الحقيقة تَشِحُّ على نفسها: ﴿ **وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم** ﴾ [محمد: ٣٨]، لكن المؤمنون ينبغي أن يكونوا في البذل كما قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ** ﴾ [التوبة:١١١].

فقد أعطاهم الله تعالى هذه النفوس، والأموال، والوقت، والجهد، وفتح عليهم جاهًا، وسلطانًا، ومنصبًا، وولدًا، ثم طلب منهم أن ينفقوا من ذلك الذي أعطاهم ليس من ملكهم ؛ **فعندما يبخلون إنما يبخلون بما أعطاهم ويبخلون على أنفسهم**؛ لأنه أمرهم ﷻ أن ينفقوا مما جعلهم مستخلفين فيه، من المال الذي آتاهم،

ليس من أموالهم على الحقيقة، فهم فقراء كما قال: ﴿ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥].

وقد كان هذا الموضوع من أطول موضوعات القرآن التي أمر الله تعالى بها أن يَبذلوا أنفسهم وأموالهم لله جل وعلا، فمن أَنفق مالاً فإن كرم الله تعالَ أفضل وأعلى وسيعطيه أكثر مما أنفق، وسيخلف عليه أكثرَ مما أنفق؛ الحسنة بسبعمائة ضعف، ويزيد ﷻ [1]، وكذا إذا أنفق وقتًا بارَك له فيه، أَنفق من جاهه وسُلطانه ليوسع على عباد الله تعالى، أَنفق نفسه لله كما كان هؤلاء يَبذلون أنفسَهم لله تعالى حفظها عليهم، وكرمهم بها في الدنيا والآخرة ﷻ.

إن الذين يمسكون ويحبسون ويبخلون؛ يفعلون ذلك لِظَنِّهم أن ذلك سينقص مالَهم، وينقص وقتَهم، وينقص جهدهم؟! كلا.. « **مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ** » [2]. النبي ﷺ يقول: لا ينقص بل يزيد؛ لأن الحق ﷻ يقول في الحديث القدسي: «**أَنْفِقْ يَا**

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٤٧٧ ، رقم ١٠١٧٨) ، ومسلم (٢/٨٠٧ ، رقم ١١٥١). ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– « كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلاَّ الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِى بِهِ؛ يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِى، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ. وَلَخُلُوفُ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ »).

(٢) أخرجه أحمد (٢/٢٣٥ ، رقم ٧٢٠٥) ، ومسلم (٤/٢٠٠١ ، رقم ٢٥٨٨) ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صلى الله عليه وسلم– قَالَ: « مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ ».).

ابْنَ آدَمَ أَنْفِقْ عَلَيكَ» [1]، فهو الذي ينفق عليك ما دمت تنفق؛ وينفق هو عليك الإنفاق الزائد؛ ذلك كله مُلكه، وذلك كله رزقه، ولا تنفذ خزائنه، فلو اجتمعوا في صعيد واحد؛ إنسهم وجنهم، ما كان، وما يكون إلى يوم القيامة، ثم سأل كل واحد مسألتَه؛ بل سأل كل واحد في الدنيا من أولها إلى آخرها، ما نقص ذلك من ملكه شيئًا، لذلك قال: «أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ» [2]. ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [محمد: ٣٨].

وهذا البخل عندما يتصدر قلب المرء ، تجده بخيلًا في عبادته، يتململ من القيام، والصيام، والصدقة، ويشح بنفسه أن يقف بين يدي الله تعالى، وأن يتعب نفسه لله - جل وعلا - شيئًا؛ ليناجي ربه، وليأخذ حظَّه من جنة الدنيا المعجلة للمؤمنين - فمتى يقف بنفسه، ويبذلها لله تعالى؟ ومتى يتحمل ذلك في جنب الله جل وعلا؟ وأي نفس هذه التي تتململ وتتأفف من البذل لله تعالى؟

لذلك ينبغي على المرء محاولة الخروج من شُحِّ نفسه، والتعود على السيرة الحسنة، وأن يكون في رمضان مُجاهدًا على التحقق بالأخلاق التي تكون عونًا له على المغفرة، وعونًا له على الرحمة، وعونًا له على العتق من النار.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣) ولفظه (عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم- قال : «قال الله عز وجل : يا ابن آدم ، أنفقْ أُنفِقْ عليك ،وقال : يدُ الله ملآى ، لا يَغيضُها نفقة، سحَّاء الليل والنهار ، أَرَأَيتم ما أَنْفَقَ منذُ خلق السمواتِ والأرضَ ؟ فإنه لم يَغض ما بيده ، وكان عرْشُه على الماء ، وبيده الميزانُ ، يَخفِضُ ويَرفَعُ»)

(٢)سبق تخريجه.

وهذه المسألة تتحقق بـأمرين وهما:

١ - **التوكل على الله.**

٢ - **حسن الظن في الله.**

فقضية التوكل وحسن الظن بالله تعالى هي التي كانت تحملهم؛ **فما أن يَحرص المرء، إلا وقد ساء ظنه بربه، وقلَّ توكله عليه**، وضعف يقينه في الله تعالى، أن يعوضه كما ذكر، وأن يخلف عليه، وأن يوسع عليه كما وعده ﷻ.

لذلك كانت هذه النفوس الشحيحة، البخيلة، لا تصلح لنفسها، ولا لغيرها؛ لأنها قد أسأت الظنَّ بالله تعالى، وكذلك ضعف توكلها ويقينها على الله، والله تعالى يقول: ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ** ﴾ [الطلاق: ٣] ، ويقول أيضًا: ﴿ **وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، فقد أَمر بالتوكل، ووصف به المؤمنين؛ لأنهم هم المتوكلون على الله تعالى.

جود النبي ﷺ :

لذلك كان النبي ﷺ أجود الناس ؛ كما قال أنس: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ، وأَجْوَدَ النَّاسِ**» (١) وكان في رمضان يتضاعف جوده اتباعا لتضاعف جود الرب؛ لأن الرب - سبحانه وتعالى - يضاعف جوده وفضله وكرمه،

(١) أخرجه البخاري (٢٨٧٥)، ومسلم (٢٣٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وإحسانه، في هذه الأزمنة المشرفة ليوسع على عباده بأنواع المغفرة والرحمة والعتق من النار؛ فمن استحق شيئًا من ذلك زاد عليه الإقبال، وزاد عليه العطاء، وتنوعت له أنواع الأفضال من الله جل وعلا.

وقد كان النبي ﷺ على هذا الحال المشرف؛ أجودَ الناس، «**وكان أجودَ ما يكون في رمضانَ حين يُدارِسُه جبريلُ القرآنَ**»[1]؛ لأنه عندما ينفق إنما ينفق من مال الله الذي لا ينفد، وعندما يُنْفِق يَعْلَم أن الذي أعطاه سيعطيه عندما ينفق، ويزيده من ذلك: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾ [إبراهيم: ٧]، ولأنه ﷺ كان أجود الناس، فكان لا يمنع شيئًا، و لا يحرص على شيء لنفسه فما دونها ﷺ ؛ وذلك بعلو يقينه بربه، وحسن توكله عليه ﷻ، لذلك فقد قال النَّبي ﷺ : «... **لَوْ كَانَ لِي عَدَدَ هَذِهِ الْعَضَاة -شجرة من شجر الصحراء كثير النَّبْت فيها - نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلَا كَذُوبًا وَلَا جَبَانًا**»[2].

لذلك كان من شأنه المشرف، أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما سُئِلَ على الإسلام شيئًا فقال:لا.[3] لم يحدث ذلك أبدًا، بل على العكس فقد أعطى ﷺ رجلاً واديًا من غَنَم - غنمًا بين جبلين - ؛ فرَجَع الرجل إلى قومه فقال: « **أَسْلِمُوا فَإِنَّ**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٦٦)، مسلم (٢٣١١) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

(٣) أخرجه مسلم (٦١٦٠) ولفظه (عَنْ مُوسَى بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- عَلَى الإِسْلاَمِ شَيْئًا إِلاَّ أَعْطَاهُ - قَالَ - فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِى عَطَاءً لاَ يَخْشَى الْفَاقَةَ).

مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءَ مَنْ لَا يَخْشَى الْفَقْرَ »[1] نعم، **لا يخشى الفقر**، لا يخشى أن يبذل فيفتقر، لا يخشى أن يبذل جُهدًا فيَضِيع، أو وقتًا فيذهب سُدًى، وإنما مستيقنًا في أنه إن أنفق فسوف يخلف عليه جل وعلا : ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٢١].

لذلك يقول صفوان بن أمية وكان على الكفر: « لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ الله ﷺ مَا أَعْطَانِي وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ »[2] لقد أعطاه ﷺ واديًا من أبلٍ ونَعَمٍ حتى قال: «أَشْهَدُ أَنَّهُ مَا تَطِيبُ بِذَلِكَ إِلَّا نَفْسُ نَبِيٍّ » ؛ ما تَطِيب نفسٌ أن تعطي هذا العطاء على كثرته، وتستيقن أنَّ بهذا العطاء لا ينفذ المال، إلا نفس نبي!

وقد ذكروا عنه أنه كان ينفق - صلوات الله وسلامه عليه - وهو لا يملك شيئًا ؛ «أُهْدِيَتْ إِلَيْهِ شَمْلَةٌ ﷺ فَقَالَ رَجُلٌ لَهُ: اكْسُنِيهَا يَا رَسُولَ الله فَلَامَهُ أَصْحَابُهُ، قالوا: تَعْلَمُ أَنَّهُ ﷺ مَا يَرُدُّ سَائِلاً، وَتَسْأَلُهُ؟ قَالَ: أَرَدْتُ أَنْ تَكُونَ كَفَنِي؛ فَأَعْطَاهَا إِيَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ وَعَادَ إِلَى شَمْلَتِهِ القَدِيمَةِ »[3] صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) انظر السابق.

(٢) رواه مسلم(٦١٦٢).

(٣) رواه البخاري (١٩٨٧).

والخصيصة التالية أنه مع هذا العطاء الذي لا يستطيعه الملوك ككسرى وقيصر، **كان يعيش في نفسه عيشة الفقراء**، وكان يمر عليه الشهر والشهران لا يُوقَد في بيته نارٌ صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فكان إنفاقه في وجه الله تعالى، وفي سبيله ﷺ؛ فيعطي المال لفقير، أو محتاج، أو من يتألفه على الإسلام.

وكان ﷺ **يُؤْثِرُ على نفسه وأهله**، فقد جاءَه ﷺ سَبيٌ مرة، وجاءته فاطمةُ ابنته رضي الله عنها تشكي له عمل بيتها؛ فقال لها النبي ﷺ: « **أَلَا أُخْبِرُكِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكِ مِنْهُ تُسَبِّحِينَ اللهَ عِنْدَ مَنَامِكِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَتَحْمَدِينَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ وَتُكَبِّرِينَ اللهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ** »، ولم يُعطها شيئًا، ويقول لها: «والله **لَا أُعْطِيك وَأَدَعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تَطْوَى بُطُونُهُمْ**» [1]، أي: لا يعطيها خادمًا مع شدة احتياجها لهذا الخادم، ويقول: «**لَا أُعْطِيكِ**»، وهو في نفسه يعيش عيشة الفقراء.

وكان بذله ﷺ متنوعًا لا يقف على المال، بل كان يبذل نفسه ووقته، وكان يبذل العلم كذلك، فيعلم جاهلهم، ويرشد ضالهم، ويعطي مُحتاجهم ومسكينهم ﷺ، فكل أنواع البذل الذي ورد ما كان يتخلف عنها ﷺ لحظة، كان هو المسارع إليها؛ الأعلى على جميع البشر فيها.

---

(١) رواه أحمد (١/١٠٦ ، رقم ٨٣٨) ، والنسائي (٦١٣٥ ، رقم ٣٣٨٤) ، وابن ماجه (٢/١٣٩٠ ، رقم ٤١٥٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٢٥٩ ، رقم ٣٤٨٠)، وصححه الحاكم (٢/٢٠٢ ، رقم ٢٧٥٥). وقال الشيخ شعيب: إسناده قوي.

جود الصحابة رضوان الله عليهم:

لما نزل قوله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ ﴾ [آل عمران: ٩٢]، إذا بالصحابة يسارعون إلى أحسن أموالِهم فينفقونها، ليس إلى الرَّدِيء ولا إلى الذي صار لا يحتاجون إليه فينفقونه، ويرسلونه إلى المسجد، أو غير ذلك مما نراه اليوم. لا، لماذا؟ لقوله تعالى :﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ ﴾.

وقد جاء في الحديث: «كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالاً مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُ حَاء، وَكَانَت مُستَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ،.. فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ ﴾ قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ الله إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُ حَاءَ وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لله أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ الله» [1]، لما نزلت تلك الآيات، وهي المسارعة، والمنافسة في أعمال الخير **عَلِم الصحابة أنهم هم المختصون بذلك، هم المخاطبون بذلك**، بأن يسارعوا إلى الله، وأن يتنافسوا، ويتسابقوا إلى هذه المعالي؛ فسابق بعضُهم بعضًا، حتى أنهم من لم يستَطِع منهم النفقة، كان يجلس ليبكي ، ثم **إنه إذا لم يستَطِع أن ينفق في بابٍ، إذا به يحاول أن يُعَوِّض ذلك الباب**.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٢)، ومسلم (٩٩٨) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

لما قام الأغنياء ينفقون من أموالهم في الصدقة، والصِّلة، والجهاد، وغيرها. هل جلس الفقراء يبكون فقط؟ لا. انتقلوا إلى درجة أعلى من المنافسة، فأتوا النبي ﷺ ليقولوا له: « ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، فقَالَ لهم رسول الله : أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟! إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ» (١).

فكانوا **يحسبون نفقات الأغنياء ثم يُصلون ركعةً بدلًا من كل دينار** حتى لا يفوتهم أحدٌ أبدًا إلى الله، ولو علموا أن أحدُ سبقهم إلى الله تعالى تتقطع قلوبهم !

ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه :

وهذه الأمثلة من الإنفاق على عكس ما نحن فيه اليوم؛ فاليوم **أصحابُ نظرية: ما يَحتاجُه البيتُ يَحْرُم على المسجد**، فيمسك مالَه، سوء ظن بالله تعالى، وبالتالي يمسك وقتَه وجهدَه؛ ولا يقبل على العبادات إلا وهو متململ وكل ذلك يدل على شُح النفس بهذا الفضل الذي يريه المولَى إياه.

لذلك ينبغي أن يجاهد المرء نفسه على التخفف من هذه الأثقال، وتلك الحُجُب التي تمنعه من الإنفاق، والبذل، والإقبال على الله تبارك وتعالى.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٠٦) من حديث أبي ذر ﷺ.

ولترى كيف كان النبي ﷺ وأصحابه يسارعون في هذه الخيرات، بل كان حالُهم الحال الأعلى من هذه الدرجة، إنهم كانوا إذا لم يجدوا ما ينفقون بَكَوْا، وفاضَتْ أعينُهم من الدَّمْع كما ذَكَر فيهم ﷻ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَلَا ﴿٩١﴾ عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩١- ٩٢].

فهم لا يبكون فقط كما يبكي الباكون ثم تنتهي المسألة، ويعودون سيرتَهم إلى الغفلة والأكل والشرب، وإلى الشهوة، لا، وإنما **تفيض أعينهم**، من الدمع ﴿**حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ**﴾.

وهؤلاء يجدون ما ينفقون ولَكنَّهم يمسكون ولا ينفقون، وذلك لعدم استحقاقهم أن يكونوا من أهل الله تعالى، الذين شملتهم رعاية الله تعالى وعنايته، أو أن يكونوا ممن اصطفاهم واجتباهم لأن يكونوا أهلاً لهذا القرب، وتلك الطاعات !

طوال رمضان : المجاهدة

ليس بمجرد أن يسمع المرء هذه المواعظ، وتلك المعاني يصير من أهلها، السالكين على طريقها- ما تعب أحدٌ إذن- ولكن لكي يحقق المرء ما سبق وأن يحسن القيام به فلا بد له من المجاهدة.

وهو الذي ينبغي أن يستغله المرء اليوم، قبل ألا يستطيع مجاهدة أو غيرها، بأن يطلع الله تعالى على المتكاسلين المتباعدين المفرطين، بعد أن فتح لهم كل هذه المواسم من مواسم المغفرة، فإذا بهم يرفضونها ويتجهون إلى خير منها ! إلى الدنيا الزائلة! فيوشك ألا يأتي عليهم رمضان، أو يوشك إذا جاء رمضان أن يغلق الباب، وأن تبقى القلوب على قسوتها وعلى بعدها وعلى تفريطها، فقد فتح عليهم أسباب التوبة فلم يتوبوا فيتركهم، ولا يحس المرء بخطورة هذا الأمر، ولا يخاف له ، وهو يتعامل مع الله تعالى !

فقد يغلق الباب في وجهه فلا يتمكن من التوبة والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [المنافقون: ١٠] ، يقال له: قد انتهت الأيام والساعات، يقال له: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي ۝٩٩ أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ [المؤمنون: ٩٩ – ١٠٠

لا يُخرج أهل الإيمان من هذه الحالة إلا المجاهدة، **فأنت بين جهادين: جهاد لاستدراك ما فات ، وجهاد في تحصيل أقصى ما يمكن في الأيام التالية**، لأنك قصرت فيما فات فإن لم تستدرك، لم يبق لك شيء، وضاع رمضان كما ضاع من قبل!

وسوف تفاجأ أيها المؤمن بكل المعوقات التي تعيقك على القيام بذلك: سوف تفاجأ بالأهل والولد، والمال، و"العزومات" والأكل والشرب، وكذا وكذا. إذا لم تحسم أمرك وتقدم ربك على كل هذه الأحوال وتؤجل ذلك كله فإنك ستظل متأخرًا عن الله تعالى، مبعدًا عن طريقه، وسترى شؤم ذلك الذي قدمته على نفسك وقلبك وعملك، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إذن فليحزم المرء أمره من يومه هذا، وسيرى عاقبة ذلك الحسنى في كل ما يأتيه مع الله تعالى؛ إذ إن الله جل وعلا لا يضيع أجر من أحسن عملاً، سوف ترى هذا الأجر الجميل في هذا العمل الحسن الذي قدمت فيه ربك على كل شيء سبحانه وتعالى.

فليعلم إذن أهل الإيمان أنه ليس هناك طريق أمامهم في هذه الأيام **إلا طريق المجاهدة**، وأن يعزموا العزم الأكيد على أن تكون هذه الأيام **فاصلاً بين عهد الضعف والتكاسل وبين ما ينبغي أن يكونوا عليه من المجاهدة وطلب الآخرة** كما قال:﴿ **وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ** ﴾ [الحج: ٧٨] وأن يعلموا أن هذه المجاهدة هي

الطريق الموصلة للمغفرة والعتق من النار، هي الطريق الموصلة للجنة، هي الطريق الموصلة لنصر الدين ورفع رايته.

فلا بد أن يكون شعار أهل الإيمان في هذه الأيام **ليرين الله ما أصنع** سأفعل ما يكون سببًا لأن يرضى الله تبارك وتعالى عنه، وأن يكون له القيمة والزلفى عند الله تعالى.

عندما يقال للمؤمنين في رمضان: ماذا ستفعلون؟ لا بد أن يقول: **لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَع**، سآتي على نفسي وعلى هواي وعلى شهواتي وعلى أكلي وعلى شربي وعلى مالي وعلى صحتي، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١].

أنوار المجاهدة :

فطريق المجاهدة إذن هو الطريق الذي يُري فيه ربه سبحانه وتعالى الوفاء بالعهد، ويُري فيه ربه سبحانه وتعالى بذله ماله ووقته وجهده لربه تعالى، ويُري به ربه سبحانه وتعالى أنه يُعظم المغفرة، ويُعظم الرب، ويقبل عليه، ويحبه، ويؤثر ما عند الله تعالى على الزائل الفاني، وتظهر عليهم أنوار المجاهدة والهداية[1]: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت:٦٩].

(١) لمزيد الفائدة، يرجى الاطلاع على الكتاب الثالث في هذه السلسلة «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا».

وأول ما يجاهد المرء نفسه عليه هو الخروج بمغفرة الله تعالى وهذه المغفرة لا تتحصل بأن تزهد فيها ، فكيف يزهد المرء فيها وكيف يتعب من تحصيلها ثم يريد أن يحصلها ! لا تتحصل المغفرة إلا أن بأن يبذل المرء لها ما يوازيها أو ما يكون سببًا لها، ومهما بذل من مال ووقت وجهد فلا يداني ذلك مغفرة الله لك وإذا ما تَحَصَّل لك ذلك في الدنيا فقد فزت فوزًا عظيمًا .

فالعاقل يستغل هذه الأيام القليلة ليحصل فيها سعادة الأبد عند الله تعالى وليتحمل فيها مشقة الطاعة حتى يستريح الأبد عند الله تعالى.

كيف يجاهد المرء نفسه؟

نبدأ بما ينبغي أن يتعلمه المرء في مجاهدة نفسه والسير بها إلى الله تعالى والحزم معها، وأن يحملها، وأن يكبتها، وأن يكبح جماحها، حتى يحدث له انقياد إلى الله تعالى.

تبدأ المجاهدة بأن يتعلم المرء **كيف يحصن نفسه بذكر الله تعالى لا يفتر عنه، وبالإقبال على القرآن** يستهدي به، وينير طريقه، ويشفي قلبه، ويبارك وقته وجهده، ويبذل له، ويكون عنوانه في كل ذلك المعاملة بالكرم مع الله تعالى ؛ وقتًا، وجهدًا، ومالاً، ونفسًا، وولدًا، وصحة، ونومًا، في كل أحواله، أن يبذل على الكرم الذي يريد

من الله تعالى بأن يكرمه بأحسن منه، ويزيده منه، كما ذكر الله تعالى: ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ [الشورى: ٢٦].

والطريق بعد ذلك أن يستمسك المرء بحال المجاهدة، **فيُرتب على نفسه الوظائف**، من القيام والصيام والذكر وأعمال الإيمان، وأن يحاول أن يوفي لله تعالى بها، وأن يجاهدها على تحقيق ذلك والقيام به، ثم **يحاسبها على الوفاء** بما عاهدت، وأن **يراقبها على عدم الروغان** منه، وكلما زاغت منه نفسه يمينًا أو شمالاً، وكلما مالت إلى الكسل أو الضعف، **عاقبها على ذلك** وحملها على الطاعة مرة أخرى، لأنه عندما يقول: غدًا إن شاء الله، إذن قد انتصرت عليه نفسه وهواه وشيطانه، ويأتي الغد ولم يفعل شيئًا، ويأتي الغد ثم الغد، ثم تنفرط أحواله، وهكذا.

ثم يحزم أمره ، فإذا لم يحزم أمره مع نفسه من أول يوم، لا بد أن يصلي مهما كانت العوائق ؛ لأنه عندما يأتي إلى الصلاة يقول: إن شاء الله، سأبدأ الصلاة من هذه الليلة من أولها، إذا بالشيطان والنفس والهوى تقول له: نَم ساعة حتى تستطيع أن تقوم إلى الصلاة، إن شاء الله تُؤخَّر الصلاة إلى الساعة كذا، فنَم ساعة حتى تتمكن من الصيام حتى تضيع الليلة، فينام نصف الليل ينام الليل كله، ويضيع القيام.

فإذا ما حزم أمره وقيل له: نَم، يقول: لا، قد عاهدنا الله على الصلاة، يُقال له: اقض هذه الحاجة، وهذه المصلحة، فالشيطان لا يتركه ليعمل الخير ، يقول: لا، **قد عاهدنا الله على الصلاة.**

فهل يتخيل المرء أن الشيطان سيأتي له ليقول: أنت رجل طيب قد عاهدت الله تعالى على الصلاة وعلى الذكر وعلى القيام، اذهب يا أخي، اذهب فصَلِّ، وسأساعدك في الصلاة، هيا إلى الصلاة، هيا إلى الذكر؟!

أو أنه كما قال الله سبحانه تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦] يعني سيقف له في طريق الله تعالى يمنعه، حتى لا يمر أحد إلى الله تعالى، ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦ -١٧].

والأمر التالي بعد كيد الشيطان، أنه سيصادفه أنه سيتعب من الصلاة، سيتأخر عن العمل، سيحدث له كذا وكذا، وأنه يود أن يذهب سريعًا، وأن ينام مبكرًا لسفره غدًا، وأن يذهب إلى كذا وكذا ، وكل ذلك يتعارض مع صيامه وقيامه وذكره، فيقدم ذلك كله على القيام والذكر والصيام، أو يتخفف من قيامه وذكره وقرآنه ليحصل ذلك، وهذه المسألة قد فتح الله تعالى للمؤمنين حلها، وهو أن يكون **توكله على الله تعالى**.

ولا يخش المرء شيئًا، **خشيته تدل على قلة التوكل، وعدم الثقة في الله تعالى** وأن الله تعالى بيده كل شيء ومقاليد السماوات والأرض. ألا يستطيع ربنا -نحن

المساكين- أن يعطينا شيئًا من الوقت والجهد والمال، إذا نحن أقبلنا عليه بما أعطانا من مال ووقت وجهد ؟!!

هو أكرم من أن نبذل له ذلك، ثم لا يكون ذلك البذل سبب بقاء هذه النعم وسبب زيادتها وإكرامها ومددها؛ إذا أردت المدد والقوة إذن فعليك أن تُقبل عليه فيقبل عليك سبحانه وتعالى، إذا بذلت له مالاً زادك وأخلف عليك إذا بذلت له جهدًا ووقتًا وصحة زادك منه وقواك فيه سبحانه وتعالى؛ فلا تخش أن يضيع عليك شيء مع الله، **تُرى هل قد ضاع شيء مع الله تعالى؟**

هؤلاء الذين يخافون ويؤثرون الدنيا والشهوات على ما عند الله ﴿ **بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧** ﴾ [الأعلى: ١٦ -١٧] هل آثر أحد ما عند الله تعالى فضاعت عليه الدنيا؟ بل على عكس، الذين يؤثرون ما عند الله، يؤثرون رضا الله تبارك وتعالى، ومحبته، والتعلق به، والإقبال عليه، وطاعته، ويعلمون في نفس الوقت أنهم مهما آثروا ذلك من الله تعالى **فإن الله تعالى يوفقهم، ويؤثرهم على غيرهم في أمور دنياهم التي يخافون عليها، ويعطيهم منها سبحانه وتعالى بغير حساب**، كما ذكر جل وعلا في قوله: ﴿ **رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١** ﴾ [البقرة: ٢٠١] يعطيهم حسنة الدنيا وحسنة الآخرة.

هذا هو الأمر الذي ينبغي أن يتفكر فيه المرء وأن يحفظه طوال شهره، حال قيامه وصيامه ونفقته، فذلك نعيمه، ويكفي أن الله اصطفاك لذلك من بين الناس وأقامك لله ويكفي أن الله تعالى سيكفيك: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

طوال رمضان : المحاسبة

فإذا كان المرء حريصًا على طلب المغفرة، فلا ينبغي أن يمضي عليه من رمضان الأسبوع وراء الأسبوع، والمؤمنون المتقون لا يحاسبون أنفسهم قبل أن تنفلت أيامهم، وينقضي شهرهم ولم يحصلوا فيه شيئًا.

والمحاسبة من أهم الواجبات التي تعين المرء على استقامة السير في طريق الله تعالى، فإنه كما قيل: من حاسب نفسه في الدنيا خف حسابه في الآخرة. وقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ ﴾ [الحشر: ١٨]، فالمحاسبة مطلوبة اليوم قبل الغد. وأهمية المحاسبة تكمن في أن المرء في طريق الله تعالى إما أن يتقدم أو يتأخر، فلا وقوف في هذا الطريق، كما قال تعالى: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴾ [المدثر: ٣٧]، وبالمحاسبة يتمكن المرء من رؤية أعماله في اليوم والليلة، فإن قلت عن أمسه فهو في خسارة ينبغي له أن يوقف نزيفها قبل انفراط الأحوال.

فإن كانت الأحوال السيئة هي المسيطرة على المرء، وكان التأخر عن القيام وعدم التأدب بآداب الصيام، وأنه ترك طول الفكر والذكر لله تعالى، والاستعداد للقائه والتهيؤ ليوم المغفرة ويوم الجائزة، وأن الأعمال الصالحة الأخرى، ليس على ما ينبغي، وأنه لم يستشعر إلا أن رمضان سينقضي كما انقضى غيره، وسيعود سيرته الأولى من يوم العيد فيرجع إلى أيامه من قبل، لا قرآن ولا قيام ولا فيها ما ينبغي أن

يكون قد حصَّله من ذلك الشهر الكريم، أو أن الله تعالى قد وهبه فيه مغفرة ورحمة، فإن ذلك يستدعي للمرء محاسبة نفسه، ومعاقبتها بزيادة الأوراد وقضاء ما فاته من أعمال، سواء قصر في قيام، أو صدقة أو ذكر أو غير ذلك، فلا ينام قبل قضاء ما عليه، والتوبة إلى الله تعالى من ذلك التفريط.

فإذا انقضى يوم المرء، ينبغي عليه **أن يُسَائل نفسه: هل ما زال مصممًا على تحقيق أسباب المغفرة والرحمة والعتق من النار؟** أو أنه قد انفرط عقده و"بان الجواب من عنوانه" كما يقال، وأنه لم يستشعر المعاني التي يستشعرها المرء عندما يعلم أن الله تعالى قد فتح عليه، وأن الله يوشك أن يغفر له، وأن الله يوشك أن يقبله سبحانه وتعالى.

والسؤال التالي: **هل تعود القيام؟** الذي قال فيه النبي ﷺ: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[1] فتعود عليه، وأحب طوله، وكان سببًا لمحبته لربه وإقباله عليه، وطول مناجاته له، وأنه لا يود أن تخرج من بين يديه سبحانه وتعالى؟ أم أنه مازال يتأخر، ولا يخش قول النبي ﷺ: «**وَلا يَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ حَتَّى يُؤَخِّرَهُمُ اللهُ**»[2] وأنه مازال مستثقلاً للقيام وطوله بين يدي الله تعالى،

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

فيود أن يخرج منه، ويود أن ينتهي منه سريعًا، ويود لو أنه صلى ثماني ركعات بأقصى سرعة ممكنة، ثم يرجع إلى الدنيا والأهل والولد، والنوم والراحة والشهوات؟

هل ألف المرء القيام وأحبه **فوجد حلاوة الطاعة، وحلاوة الإقبال على الله**، وحلاوة المناجاة فحرص عليه أشد الحرص وأكمل له الآداب، ووقف له الوقوف الطويل الذي يرجو به تخفيف الوقوف يوم القيامة، ويرجو به نور الله تعالى في ظلمات القبر وظلمات الصراط؟

هل بادر المرء إلي ذلك القيام وبعد انقضاء الليل حزن على انقضاءه ولأنه لم يقضِ منها وطره من محبة الله تعالى، والإقبال عليه؟ أم أن القلب كما هو لا يستشعر حلاوة الطاعة ولا الإقبال ولا المحبة، فذلك دليل الخروج من رمضان كما خرج من غيره، ودليل أن القبول قد بعُد، وأن درجاته قد قلَّتْ، وأن فرصته قد تضاءلت، وأصبح المرء يقول أمرنا إلى الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، أوشك رمضان أن ينتهي ولم يمتلئ القلب إيمانًا ومحبة وقربًا وخوفًا ورجاء ومهابة وذكرًا وطمأنينة وإقبالاً على الله تعالى.

هل مازال الصيام ثقيلاً على قلب المرء فيود أن ينتهي منه ويعد الساعات ليخرج من يومه، حتى إذا انتهى يومه أقبل مرة أخرى على تلك الشهوات التي قد حُرم منها ليتحقق له بها المغفرة **فبذل لهذه المغفرة بذلها**، وضحى لها تضحيتها المطلوبة أو شيئًا قريبًا منها، أو أن المرء ما زال زاهدًا في هذه المغفرة، لأنها لا تساوي

عنده أن يواصل الليل بالنهار، ولا يوازي عنده أن يقوم لها، وأن يصوم لها، وألا يضيع وقتًا من أوقاته ولا نفسًا من أنفاسه إلا في تحصيل أسبابها؟

في النهاية، **هل أحب المرء الله تعالى وأقبل عليه من كل قلبه أو لا؟**

ترى المرء بما قدم في يومه وأسبوعه ينتظر شيئًا من المغفرة التي وعد الله تعالى عباده؟ ترى المرء لو مات على هذا الحال ينتظر بياض صحيفته وبياض وجهه، وثقل موازينه وأن يلاقي ربه بالشوق إليه، أو تلك الملاقاة التي يخاف أن يفضح بها أمام الله تعالى؟

يعجب المرء أشد العجب من أولئك المؤمنين الذين أتاهم هذا الموسم العظيم فلم يزدادوا به شيئًا ، لا إقبالاً ولا طاعة ولا محبة، بل ظهرت أحوالهم على حقيقتها من عدم الإقبال والمحبة، ومن عدم البذل والتضحية، ومن عدم الحمل على النفس والمجاهدة وبذل هذه المشقة التي يود بها المغفرة.

يحزن المرء عندما يرى هذه الأحوال، ويود لنفسه وللمؤمنين أن تتغير أحوالهم، وأن يأخذوا أمر ربهم بجد وحزم، وأن يعلموا أنه **لا وقت للهزل واللعب**، وأن ذلك لا ينفع عند الله، وأن الله تعالى لا يقبل من عباده هذا التكاسل والتواني.

هو سبحانه يقول: هلموا، يا باغي الخير أقبل، هلموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض، هلموا إلى مغفرة ربكم، هلموا إلى محبته، وإذا بهم زاهدون،

وإذا بهم مقصرون، يقول: هلموا، فلا يهتمون ولا يأتون، وإذا بهم يفضلون عليه سبحانه وتعالى هذه الزوائل التي سرعان ما تنقضي في هذه الحياة الدنيا.

طوال رمضان : الدعاء

وهو الباب الذي فتحه الله تعالى في رمضان، **فدعوة الصائم لا ترد**، كما قال ﷺ: « **ثَلاثَةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهم : الصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ** »[1]، وهي فرصتنا، وفرصة من دخل رمضان ولم يتأهل له، فدخل بذنوبه ومعاصيه وبكسله وتوانيه ودخل كذلك بضعف الهمة والعزيمة وقلة البركة في الوقت والجهد، فتح الباب الذي يمدك ويعطيك منه ويفيض عليك سبحانه وتعالى فيه من رحمته، وهو باب إجابة الدعاء.

فالمرء قد يئس من نفسه، فإن أراد أن يُصلحها تشتت عليه ، و إن أرادها أن تذكر غَفَلَت ، وإن أرادها أن تترك التكاسل نامت، يجاهد يومًا ويرجع يومًا ويومين وثلاثة، ثم يقف الحال به على حد العجز !

فُتح لنا باب الدعاء؛ ليكون هذا الباب سببًا في رفع هذا البلاء، وإصلاح هذه الأحوال؛ حيث إن التضرع لله تعالى، ورفع اليدين له، والانكسار بين يديه، والخروج عن الحَوْل والطَّوْل والقوة؛ كل ذلك سبب في أن يتقبل الله تعالى دعاء المرء، خاصة إذا رأى بكاءه، وخوفه، وحزنه وضيقه من حاله ومن نفسه، إذا رأى ذلك فإنَّه يمُن عليه ﷻ فيخفف عليه القيام، ويهون عليه الصيام، ويَرزقه تلاوة كتابه

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٤٤٥ ، رقم ٩٧٤١) ، والترمذي (٥/٥٧٨ ، رقم ٣٥٩٨) وقال : هذا حديث حسن . وصححه ابن حبان (٣/١٥٨ ، رقم ٨٧٤). ولفظه (عن أبي هريرة - رضي الله عنه - : قال : قال رسولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- : «ثَلاثَةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهم : الصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ ، والإِمَامُ العادلُ ، ودعوةُ المظْلُومِ ، يَرْفَعُها اللهُ فوقَ الغَمَامِ، وتُفْتَحُ لها أَبْوَابُ السماء ، ويقول الرَّبُّ : وعِزَّتِي لأنصُرَنَّكِ وَلَو بَعدَ حِينٍ).

والاستشفاء به، ويقبل منه عمله، ويبارك له وقته وجهده ﷻ، كل ذلك إذا صَحَّ الدعاء، وخرج من قلب سليم.

فكل المصائب التي تصيبنا فإن الدعاءُ هو أهم شيء يدفعها، وأهم سبب لحصول المقصود، لأنه ﷻ قال: ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]، والله تعالى لا يتخلف وعده للمؤمنين، ولأن الدعاء أنفع شيء لدفع البلاء، فقد يكون الدعاء أقوى من البلاء فيرفع البلاءَ، أو أن يكون أقل منه فيرفع من البلاء بقدره، أو أن يكون مثله فيتعالجان إلى يوم القيامة كما جاء في الحديث [1].

وقد يقول القائل: لقد دعوت ولم يستجب لي، **فيستحسر، وييأس، ويَسْأَم، ويَمَلَّ، فإذا به يترك الدعاء**، مع أن النبي ﷺ يقول: « **ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ**» [2]، ادعوا الله وأنتم متيقنون أن الله تعالى سوف يستجيب ﷻ لكم هذه الأدعية.

من الذي دعا، ودعا، ودعا، واستمر على الدعاء، واستمر على الوقوف بباب الله تعالى متضرعا، كلَّما رأى عيبا مَحَاه، وكلَّما رأى خَلَلاً سَدَّهُ، وكلَّما رأى ذنبًا

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٣٤ ، رقم ٢٢٠٩٧) ، والطبراني (٢٠/١٠٣ ، رقم ٢٠١) والحاكم (١/٦٦٩ رقم ١٨١٣) وقال : صحيح الإسناد ولفظه (لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة).

(٢)أخرجه الترمذي (٥/٥١٧ ، رقم ٣٤٧٩) وقال : حديث غريب . والحاكم (١/٦٧٠ ، رقم ١٨١٧) ، وقال : مستقيم الإسناد وتعقبه الذهبي في التلخيص بأن فيه صالح المري متروك. ولفظه (ادْعُوا اللهَ وأنتم مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أن الله لا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً من قلب غَافِلٍ لاَهٍ).

تاب منه، وهو واقفٌ يتضرع ويدعو ويتململ **ولا يُفارق باب الله حتى يستجيب دعاءه** ؟ من فعل ذلك فلا بد من تحقق الاستجابة له بفضل الله، ولكنه لا يرى إجابة فيترك الدعاء، فيكون ذلك سبب لتخلف أثر الدعاء.

وذلك ما بينه رسول الله ﷺ :«**لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الِاسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: يَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي**»[1]، ومثل ذلك كمثل الذي بَذَر البذر وتعاهدَهُ بالسقي والحرث، ثم طال عليه إدراكه ونموه، فأهمله وتركه.

لذلك ينبغي أن يتعلم المرء من ذلك **الإلحاحَ في الدعاء**، والوقوفَ بباب الله تعالى لا يتحرك ولا يتزحزح، لأن ذلك سبب من أسباب استجابةِ الدعاء، ورفع البلاء في كل أحوالِه في الدنيا والآخرة، في الظاهرِ والباطن.

ويتخلف أثر الدعاء لعدة أسباب :

الأول: الدعاء بالأدعية الضعيفة التي فيها اعتداءٌ وعُدْوان.

الثاني: وإما لكون المرء لم يجمع قلبه بكليته على مطلوبه حال الدعاء.

الثالث: وإما لوجود الموانع التي تمنع الإجابة من الله تعالى؛ كأكل الحرام، ورين الذنوب على القلب، وغلبة الغفلة، والشهوة واللهو على القلب: «**إِنَّ اللهَ لَا**

(١) مسلم (٢٧٣٥).

يَسْتَجِيبُ دُعَاء مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ» [1] أي: دعاء يدعوه به، فهو كالسَّهم، فالسهم الضعيف يخرج من القَوس الضعيف الرخوة، فلا يصل إلى مقصوده، فإذا جاءته موانع الإجابة أيضًا من أكل الحرام، وكثرة الذنوب والخطايا والسيئات، وغلبة الغفلة، واللهو، والشهوةِ، فأنَّى يستجاب له؟ لذلك ينبغي على المؤمنين أن يكون همهم هذه الأيام: كيف يتحققون بإجابة الدعاء ؟

ويجمع الإمام ابنُ القيم إجابةَ الدعاء في هذه الجملة [2]، التي نشير إلى معانيها سريعًا؛ بحيث يتضح المقصود.

يقول ابن القيم: إذا جمع المرء مع الدعاء حضور القلب بكليته وجمعيته على الله تعالى، وصادف هذا الدعاء وقتا من أوقات الإجابة الستة وهي:

الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، ودبر الصلوات المكتوبات، ويوم الجمعة حتى ينزل الإمام من على المنبر، وآخر ساعة من ساعات يوم الجمعة، يعني: من بعد العصر إلى غروب الشمس.

ثم بعد ذلك صادف خشوعًا في القلب، وانكسارا بين يدي الربِّ، وذلًا له ﷻ، وتضرعًا، ورقةً، ثم استَقبَل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورَفَع يديه إلى الله تبارك وتعالى، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنى بالصلاة على النبي ﷺ ثم قَدَّم بين

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/٥١٧ ، رقم ٣٤٧٩) وقال : حديث غريب . والحاكم (١/٦٧٠ ، رقم ١٨١٧) ، وقال : مستقيم الإسناد وتعقبه الذهبي في التلخيص بأن فيه صالح المري متروك. ولفظه (ادْعُوا الله وأنتم مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أن الله لا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً من قلب غَافِلٍ لاَهٍ).

(٢) انظر الجواب الكافي ص٥.

يَدَي حاجته التوبة والاستغفار ، ثم دَخل على ربه، فألح عليه في المسألة وتملقه، ودعاه برغبةٍ ورهبةٍ، وتَوسل إليه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وتوحيده، وقدَّم بين يَدَي دعائِه صدقة، فإن **مثل هذا الدعاء، لا يكاد يُرَدُّ أبدًا**، لا سيما إن صادَف دعاءً من الأدعية التي تتضمن اسم الله الأعظم الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى

ونفصل قليلًا في هذه الكلمات التي قالها الإمام ابن القيم؛ لنحاول السير على هذا النهج في هذه الأيام المباركة.

أولها : «إذا جَمَعَ مع الدعاء حضور القلب بكليته وجمعيته على الله تعالى ».

أن يحضر قلبه على الدعاء، فإن الله لا يَقبل دعاءً من قلبٍ غافلٍ أو لَاهٍ، وإنما إذا حَضَر القلب مع الدعاء كان أَرجى لتحقيق المطلوب؛ حيث يَتواطأ القلب واللسان على دعائه لله تبارك وتعالى، وكلما خَرج الدعاء من قلبٍ قوي مجتمع على الله تبارك وتعالى، **لا يَرى إلا الله هو الذي يقبل دعائه**، وهو الذي يستجيب له ذلك، فإن هذا القلب الحاضر، الحي، المتعلِّق بالله تبارك وتعالى، هذا القلب الذي خَرج عن الأسباب إلا لله ﷻ، والذي فقد الرجاءَ في كل شيء إلا في الله جل وعلا، فإنه يوشك أن يستجاب له.

وذلك لعلمه أن له ربًّا هو الذي يقبل، وهو الذي يغفر، فأقبل عليه وترك الأنداد والأسباب، وتضرع إليه ﷻ بهذا الافتقار، وذلك الجمع على الله تعالى وينظر أن الله هو الذي يستجيب، فيتعلَّق به قلبه ويقبل عليه، وينخلع من قوته وحوله

وطوله، ومن حول الناس وسلطانهم، فلا يلتفت قلبه إلا إلى ربه، حينئذٍ يوشك أن يستجيب له.

ثانيًا: فإن صادف وقتًا من أوقات الإجابة كالسَّحَر:

فإن الرب يتنزل في الثلث الأخير من الليل ويقول: «**هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ؟ حتى يطلُع الفجرُ**»[1]، وهذا وقت الإجابة؛ إذا ما كان المرء ساجدًا كان أقربَ وأحرى بالاستجابة، فإنه **أقربُ ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، وأقرب ما يكون العبد من الرب وهو ساجد،** لذلك قال النبي ﷺ: «**أَلَا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**»[2].

ومعنى " قَمِنٌ " : جديرٌ أن يستجابَ لكم، فإن تحققت هذه الثلاثة: قرب العبد من الرب، وقرب الرب من العبد، في ثلث الأخير من الليل الذي يستجيب فيه الدعاء، يوشِك أن يستجيب اللهُ تعالى دعائَه.

ثالثا: عند الأذان، وبين الأذان والإقامة، لا تُرَدُّ الدعوةُ، وقد صَحَّ هذا الحديث بإسنادٍ جيد أنه بين الأذان والإقامة لا ترد الدعوة، وكذلك - كما أشرنا -

(١) أخرجه البخاري (٦٣٢١)، ومسلم (٧٥٨) .

(٢) أخرجه مسلم (٤٧٩).

دُبُر الصلوات المكتوبات، وعند صُعود الإمام إلى المنبر حتى تنتهي الصلاة، وآخرُ ساعة يوم الجمعة.

وهذه الأيام وتلك الليالي وتلك الساعات إنما شرُفت لأسبابٍ وأسرارٍ لا يعلمها البشر عن الله تعالى، ولأسباب يعلمها البشر:

ففي نهاية الليل في الثلث الأخير: تصفو النفس، ويزداد الإخلاص، ويزداد الإقبال على الله تبارك وتعالى، وفي الجمعة: تجتمع الهمم، والقلوبُ تتعاون على استِدرارِ رحمةِ الله تعالى؛ فيكون ذلك أقرب إلى استجابة الدعاء، عندما يُصادِف ذلك خشوعًا في القلب وانكسارًا بين يدي الرب، وذُلاً له جل وعلا.

لذلك كان عمر ﷺ لا يعول على الدعاء في الاستجابة، بقدر ما يعول على فتح باب الدعاء له، **فيقول: إذا فُتِحَ بابُ الدعاء فقد فُتِحَ بابُ الإجابة**.

وقد كان حال النبي ﷺ أنه يرفع يديه في الدعاء حتى يظهر بياض إبطيه [1]، ويستقبل القبلة، ويدعو على طهارة، ويدعو على الخشوع ، وقد رأيناه ﷺ كيف يفعل ذلك في كل المواقف ، وكان إذا أهمه أمرٌ رفع رأسه إلى السماء ﷺ، وكان إذا اجتهد في

(١) رواه البخاري (٤٨٩). ولفظه (عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - :«أنَّ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأيتُ بَياضَ إبطَيْهِ»). ولكن قال العلماء أن المبالغة في الرفع بهذا الشكل لا تكون إلا في دعاء الاستسقاء. انظر الفتح (٢ / ٥١٨)

الدعاء قال: «**يا حيُّ يا قيوم**»[1] فيقبل على الله تعالى حالئذ، ويدعو ويرفع يديه مع الخشوع والتضرع والرقة وبكاء العين وحضور القلب في هذه الأوقات الفاضلة.

رابعًا: أن يقدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار:

فلا بد أن يكون تائبًا بينه وبين ربه، وأن يكون قد خرج من المظالم بينه وبين الناس، فإن هذه الذنوب والسيئات تمنع وصولَ الدعاء إلى الله تعالى ، وهذه المظالم بينه وبين الناس ترد الدعاء كما أشرنا ؛ لذلك بين النبي ﷺ في هذا الذي « **يَرْفَع يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَيُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَقُولُ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ** ».[2]

فبين ﷺ شيئًا من أسباب الموانع التي تمنع الإجابة؛ أن مطعمه ومشربه من حرام، وهذا دليلٌ على بقية المعاصي والذنوب، فإن بقية المعاصي والذنوب كذلك تَمنع وصول الدعاء إلى ربه ﷻ.

خامسًا: ويلح عليه في المسألة، ويتملق ربه :

وقد كان النبي ﷺ يكرر الدعاء ثلاثة صلوات الله وسلامه عليه، وقد أشرنا أنه بالإلحاح في المسألة من العبد للرب، يوشك الربُّ إذا رأى عبدَه متضرعًا، أسيفا، حزينا، يدعو بقلب حاضر خاشع لله منكسرا له، يقول له: يا رب أنت الكريم، وأنت

---

(١) رواه الترمذي (٣٤٣٦) وقال: حسن غريب. ولفظه (عن أبي هريرة - رضي الله عنه - : «أنَّ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا أهَمَّهُ أمْرٌ رفعَ رأسَهُ إلى السماء ، وقال : سبحان اللهِ العظيم، وإذا اجتَهَدَ في الدُّعاء، قال : يا حَيُّ يا قيُّوم»).

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٥) .

الغفور، وأنت البر، وأنت الرحيم، وأنت الوهَّاب، وأنت الجوَّاد، وأنت المحسن، وليس لنا إِلَّاكَ، لا ملجأ لنا ولا مَنجى منك إلا إليك، هذه نَواصِينا الخاطئة الكاذبة بين يديك...

نَدعوكَ دعاءَ المسكين، ونتضرع ونبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليلِ...

لا ملجأ ولا مَفر، إلى مَن نقف؟ وإلى من نتضرع؟ إلى من نرفع أيدينا وأكفنا؟ إلى من نبكي ونخشى ونسعى ؟ حينئذ يوشك أن يقول المولى: أَعْطُوهُ، كما قال سبحانه تعالى: « هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ »(١).

سادسًا: ويدعوه رغبةً ورهبةً :

كما قال: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٥]. وكما قال:﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنبياء: من الآية٩٠]، كما ذكر المولى فيه، وفي استجابة دعائهم كما ذكر ﷻ: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

سابعًا: ثم يتوسل إليه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ ﴾ [الأعراف: ١٨٠] ادْعُهُ باسمه الكريم والبر والجواد والتواب والغفار

(١) أخرجه البخاري (٦٣٢١)، ومسلم (٧٥٨).

والقوي والغني والقادر ﷻ، ادعه بهذه الأسماء، وتملقه بها، وارفع إليه يديك بهذه الأدعية، وأقبل بقلبك وكل جوارحك عليه.

فإن التوسل بالأسماء الحسنى والصفات العليا من أسباب استجابة الدعاء عند الله تعالى، كالتوسل بالأعمال الصالحة، بل هي أفضل، فإن التوسل بالأعمال الصالحة يَفِكُّ الصخرة كما جاء في حديث الصخرة [1] فكان الأَوْلى أن يتوسل إلى ربه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وبتوحيده ﷻ، ليستجيب له.

---

(١) رواه البخاري (٥٩٧٤)، ومسلم (٢٧٤٣). ولفظه (عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - : قال : سمعتُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- يقول : «انطلقَ ثلاثةُ نَفَر ممن كان قبلكم، حتى آواهم-[٣١٥]- المبيتُ إلى غار ، فدخلوه ، فانحدرتْ صَخرَة من الجبل، فسَدت عليهم الغارَ، فقالوا: إنه لا يُنجيكم من هذه الصخرة إلا أن تَدْعُوا الله بصالح أعمالكم ، قال رجل منهم : اللهم كان لي أبوان شيخانِ كبيران ، وكنتُ لا أَغْبُقُ قبلهما أهلا ولا مالا ، فنأى بي طلبُ شَجَر يوما ، فلم أَرُحْ عليهما حتى ناما، فَحَلَبْتُ لها غَبوقَهُما ، فوجدتهما نائمين ، فكَرِهتُ أَن أَغْبُقَ قبلهما أهلا أو مالا ، فَلَبِثْتُ والقَدَحُ على يدي أنتظر استيقاظهما ، حتى بَرَقَ الفَجْر- زاد بعض الرواة : والصِّبيَةُ يَتضاغَونَ عند قدَميَّ - فاستيقظا ، فشربا غَبوقَهُما ، اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك ، ففرِّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرَجَتْ شيئا لا يستطيعون الخروج.

قال النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- : قال الآخر : اللهم كانت لي ابنةُ عمّ ، كانت أحبَّ الناس إليَّ، فأردتُها على نفسها، وامتنعت مني، حتى أَلَمَّتَ بها سَنَة من السنين ، فجاءتني، فأعطيتُها عشرين ومائةَ دينار، على أن تُخَلِّيَ بيني وبين نفسها ، ففعلت ، حتى إذا قَدَرْتُ عليها ، قالت: لا أُحِلُّ لَكَ أَن تَفُضَّ الخَاتَمَ إلا بِحقِّه ، فتحَرَّجْتُ من الوقوع عليها، فانصرفتُ عنها وهي أحبُّ الناس إليَّ ، وتركتُ الذهب الذي أعطيتها ، اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك فافْرُج عنا ما نحن فيه ، فانفرَجَتِ الصخرة ، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

قال النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- : وقال الثالث : اللهم استأجَرْتُ أُجَرَاءَ ، وأعطيتُهم أجرَهم ، غير رَجُل واحد ، تَرَكَ الذي له وذهب، فَثَمَّرتُ أَجْرَهُ حتى كَثُرَتْ منه الأموال، فجاءني بعد حين ، فقال: يا عبد الله ، أَدِّ = إليَّ أجري، فقلت: كلُّ ما ترى من أَجْرِكَ ، من الإبل والبقر، والغنم، والرقيق، فقال: يا عبد الله ، لا

ثامنًا : ويقدم بين يدي دعائه صدقة :

والصدقة مع الدعاء مما يستجيب المولى به - كما سبق وأشرنا - وقد كان ذلك من فعله ﷺ إذا خرجوا للاستسقاء أو إلى غيره من الأمور التي يجتمعون فيها للدعاء، أن يتصدقوا وأن يخرجوا منكسرين إلى الله تعالى، متبذلين له، خاشعين له، فإذا بالله تعالى يستجب دعائهم، فإن الصدقة في السر تطفئ غضب الرب ﷻ[1] كما أنها من الأعمال الصالحة التي يرتفه بها الدعاء إلى الله تعالى: ﴿ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠].

فكلما أراد المرء أن يرفع عملاً صالحًا إلى الله تعالى؛ دعاءً أو غيره من أذكار الله تعالى، يرفعه بالأعمال الصالحة، ومن الأعمال الصالحة التي يرتفع بها الدعاء إلى

تستهزئُ بي، فقلتُ : إني لا أستهزئُ بك ، فأخذه كلَّه ، فاسْتاقه ، فلم يترُكْ منه شيئا، اللهم فإن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك فافْرُج عنا ما نحن فيه، فانفرجتِ الصخرة ، فخرجوا يمشون».

وفي رواية: أَنَّ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- قال : «بينما ثلاثة نَفَر ممن قبلكم يمشون ، إذ أصابهم مَطَر، فأَوَوْا إلى غار ، فانطبق عليهم ، فقال بعضهم لبعض : إِنَّهُ واللهِ يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدقُ ، فليَدْعُ كلُّ رجل منكم بما يعلم أنه قد صدَق فيه ، فقال أحدهم : اللهم إن كنتَ تعلم أنه كان لي أجير عَمِل لي على فَرَق من أَرُزّ ، فذهب وتركه ، وإني عَمَدْتُ إلى ذلك الفَرَق فزرعته ، فصار من أمره إلى أن اشتريتُ منه بقرا، وإنه أتاني يطلب أجره، فقلت له : اعْمِدْ إلى تلك البقر ، فَسُقْها ، فقال لي : إنما لي عندك فَرَق من أَرُزّ. فقلت له : اعمد إلى تلك البقر ، فإنها من ذلك الفَرَق ، فساقها ، فإن كنتَ تَعلم أني فعلتُ ذلك من خشيتك ففرّج عنا، فانساحت عنهم الصخرة...».)

(١) أخرجه الطبراني (٨/٢٦١ ، رقم ٨٠١٤) . قال الهيثمي (٣/١١٥) : إسناده حسن. ولفظه (صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر).

الله ﷻ، ويستجاب بها تلك الصدقات، سواءً في السر أو في العلن، فإن ذلك كله يرفع الدعاء، وقَمِنٌ أن يستجيب الله به ﷻ.

الدعاء باسم الله الأعظم:

فإذا صادف الدعاء بعد ذلك أدْعيةً من الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ التي تشتمل على الاسم الأعظم لله تعالى فإن المولى سبحانه وتعالى يستجيب الدعاء.

سمع النبي ﷺ رجلاً يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ يَا أَللَّهُ بِأَنَّكَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**» (١) قال لقد دعا الله تعالى باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى ﷻ،ويقول أنس: كنت جالسًا مع النبي ﷺ ورجلٌ يدعو فيقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ**» (٢) قال النبي ﷺ لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دُعِيَ به أجاب وإذا سُئِل به أعطى.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٣٣/٧ ، رقم ٣٥٦٠٧) ، وابن ماجه (١٢٦٧/٢ ، رقم ٣٨٥٧) ، والحاكم (٦٨٣/١ ، رقم ١٨٥٨) ، وقال : صحيح على شرط الشيخين . وابن حبان (١٧٣/٣ ، رقم ٨٩١). ولفظه (عن بريدة – رضي الله عنه – : أَنَّ رسولَ الله –صلى الله عليه وسلم– : «سَمِعَ رَجُلا يقول : اللَّهمَّ إني أسألُكَ بأني أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ ، لا إلهَ إلا أنتَ، الأحَدُ الصَّمَدُ ، الذي لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ، ولم يكن له كُفُوا أحَدٌ ، فقال : والذي نفسي بيده ، لقد سأل اللهَ باسمه الأعظَمِ ، الذي إذا دُعِيَ به أجابَ وإذَا سُئِلَ بِهِ أعْطَى).

(٢) رواه أحمد (٢٣٠/١ ، رقم ١٣٨٢٤) ، وأبو داود (٧٩/٢ ، رقم ١٤٩٥) ، والترمذي (٥٥٠/٥ ، رقم ٣٥٤٤) ، وقال : غريب . والنسائي (٥٢/٣ ، رقم ١٣٠٠) ، وابن ماجه (١٢٦٨/٢ ، رقم ٣٨٥٨) ، وابن حبان (١٧٥/٣ ، رقم ٨٩٣) ، والحاكم (٦٨٣/١ ، رقم ١٨٥٦) وقال : صحيح على شرط مسلم. ولفظه (عن أنس : أن النبي – صلى الله عليه وسلم – مر بأبي عياش الزرقي وهو يصلي ويقول : اللهم إن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام ، قال رسول الله – صلى الله عليه

الدعاء بأدعية تفريج الكرب:

أول هذه الأدعية هي قول النبي ﷺ: « **اللَّهمَّ إِني عَبدُك ، وابن عبدكَ ، وابنُ أَمَتك ، وفي قبضَتِك ، ناصِيتي بيدِك ، ماضٍ فيَّ حكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤُك ، أسأَلُك بكلِّ اسمٍ هو لكَ ، سَمَّيتَ به نفسك ، أو أَنْزَلتَه في كتابك ، أَو استَأثَرْتَ به في مكنُون الغيب عندَك : أن تجعلَ القرآن ربيعَ قلبي ، وجَلاءَ هَمِّي وغَمِّي** »[1].

ومنها دعاء ذي النون، يقول النبي ﷺ: «**دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنْ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ**»[2]، إذا دعا بها في شيء، يعني: في أي شيء يدعو بها المرء يَسْتجيب الله تعالى بها، ويقول في الرواية الأخرى: «**أَلَا أُخبِرُكُم بِشَيءٍ إِذَا نَزَلَ رَجُل**

وسلم - : تدرون ما دعا به الرجل قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : لقد دعا الله باسمه الذي دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى).

(١) أخرجه أحمد (٤٥٢/١ ، رقم ٤٣١٨) قال الهيثمي (١٣٦/١٠) : رجاله رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني ، وقد وثقه ابن حبان . وابن أبي شيبة (٤٠/٦ ، رقم ٢٩٣١٨) ، والطبراني (١٦٩/١٠ ، رقم ١٠٣٥٢) ، والحاكم (٦٩٠/١ ، رقم١٨٧٧) وقال : صحيح على شرط مسلم. ولفظه: (عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - : أن رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- قال : «مَن كَثُر هَمُّهُ فَلْيَقُل : اللَّهمَّ إِني عَبدُك ، وابن عبدكَ ، وابنُ أَمَتك ، وفي قبضَتِك ، ناصِيتي بيدِك ، ماضٍ فيَّ حكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤُك ، أسأَلُك بكلِّ اسمٍ هو لكَ ، سَمَّيتَ به نفسك ، أو أَنْزَلتَه في كتابك ، أَو استَأثَرْتَ به في مكنُون الغيب عندَك : أن تجعلَ القرآن ربيعَ قلبي ، وجَلاءَ هَمِّي وغَمِّي ، ما قالها عبدٌ قطُّ إلا أذْهَبَ الله غَمَّه ، وأبدله به فرحًا).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٠/١ ، رقم ١٤٦٢) ، والترمذي (٥٢٩/٥ ، رقم ٣٥٠٥) ، والنسائي في الكبرى (١٦٨/٦ ، رقم ١٠٤٩٢) ، والحاكم (٦٨٤/١ ، رقم ١٨٦٢) وقال : صحيح الإسناد . والبيهقي في شعب الإيمان (٤٣٢/١ ، رقم ٦٢٠).

مِنْكُمْ كَرْبٌ أَوْ بَلَاءٌ مِنْ بَلَايَا الدُّنْيَا دَعَا بِهِ يُفَرِّجُ عَنَهُ فَقِيلَ لَهُ: بَلَى، فَقَالَ: دُعَاء ذِي النُّون» [1] فالنبي ﷺ يخبر بهذا الدعاء أنه إذا نَزَل أمرٌ مُهِمٌّ للرجل وأراد أن يفرجه الله تعالى عنه يُخْبِرهم النبي ﷺ بدعاء ذي النون إذا دعوا به استجابَ الله لهم.

هذا الدعاء بهذه الآداب التي أشرنا إليها يوشك أن يكون سببًا لفكِّ الكُرَب، العقد التي نحن فيها، ورفع البلاء الذي نَزَل بنا، كما أشار النبي ﷺ، فعلى المرء المسارعة إلى الله تعالى، وبذل الوقت والجهد، وأن يكون على أحسن حال يمكن أن يقبل الله تعالى منه دعاءه، فإذا ما قُبِل الدعاء صلحت هذه الأحوال ، واستجابت النفس والقلب لهذه الأعمال والطاعات والقربات، وسارعت إليها، وانشرح الصدر، وثبتت الأقدام على الطريق، وأُضِيء لها طريقها إلى ربها، وتنزلت الرحمة، وارتفع الشقاء ، وإذا بالمرء الذي قد استجيب له قد انفتح تلك الأبواب من أبواب الشفاء والهداية، ومن أبواب الرحمة والاستجابة ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

فليحاول المرء ولا ييأس، وليلح، وليدخل على الله تعالى كما ذكرنا بهذه الآداب، فإنها المُعِينة له في تلك الأيام على تحصيل ما لم يحصل، وعلى الثبات فيما حَصَّله، وعلى التَّوَسُّع من رحمة الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] كما ذكر جل وعلا.

---

(١) أخرجه الحاكم (٦٨٥/١ ، رقم ١٨٦٤) ، وابن عساكر (٣٨/٤٥) . وأخرجه أيضًا : النسائي في الكبرى (١٦٨/٦ ، رقم ١٠٤٩١) ..

تجهيز الأدعية لأوقات رمضان:

فإذا ما كان الأمر على هذا الحال، وأن نهار الصائم يستجاب له، لا يُردّ دعاؤه، وأن ليل الصائم له فيه كذلك دعوة مستجابة، **فبماذا يدعو المرء ربه؟**

نحن نريد من الله سبحانه وتعالى أن **يقوي همنا وأن يرفع عزيمتنا**، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يشرح صدرنا بالقرآن، وبالإقبال عليه، وأن يقبل علينا بمحبته، وأن يقوم لنا سبحانه وتعالى بأشغالنا، وأن يدفع عنا جل وعلا، **وأن يحفظنا من الشيطان والنفس والهوى**. نحن نريد من الله سبحانه وتعالى أمورا كثيرة، في مالنا وأولادنا ونفسنا وعملنا وخُلقنا، بيننا وبين الله، وبيننا وبين الناس، **نريد من ربنا أن يرفع البلاء عنا وعن المسلمين**، كل هذه الدعوات قد فتحها دعوة دعوة، لا ترد ليلها ونهارها.

المرء محتاج لله تعالى **ليخلص قلبه من آفاته من الكبر والعجب ورؤية النفس**، وأن وطول الأمد، ومن الاستكانة إلى الدنيا، ومن التعلق بالمخلوقين، وأن يخلص كذلك أخلاقه من هذه الأخلاق السيئة من الحسد، ومن عدم الأمانة، ومن الغش ومن الخيانة التي يراها المرء في أعماله، سواء مع الرب أو مع غيره، نريد من الله تبارك وتعالى **أن يُطَهِّرَ ألسنتنا وقلوبنا**، وأن يحفظ أسماعنا وأبصارنا، وأن يحفظ علينا جوارحنا، وأن يبارك لنا في الوقتك والجهد، الذي لا نملك منه شيئا اليوم، وأن يبارك لنا في عقولنا وفي علمنا، **وأن يشفينا من أمراضنا وعللنا، في ظاهرنا وباطننا،**

وأن يقبل علينا سبحانه وتعالى برحمته ومغفرته، وأن يعطينا من ثواب الدنيا والآخرة، وأن ينزل رحمته ونصره على المؤمنين، وأن يهزم الكافرين، وأن يزلزل بهم، وأن يمزقهم شر ممزق.

المرء محتاج كذلك إلى **أن يؤلف الله بينه وبين إخوانه، وأن يخرج من قلبه الأضغان والأحقاد**، والآفات والأخلاق السيئة، وأن يهديه لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا هو، وأن يصرف عنه السيئ لا يصرف السيئ إلا هو، و أن يؤلف بيننا وبين بعضنا، وأن يجعل بيننا المودة، و**أن ينزل علينا رحمته**، و أن ينير لنا الطريق إليه، **وأن يزهدنا في الدنيا، ويقبل بنا على الآخرة**.

المرء يريد من الله تعالى **أن ينزع شهواته ونزواته التي فيك وتعطله عن الله تبارك وتعالى**، وأن يشغل لسانه بذكره، وقلبه بالإقبال عليه، وأن يقبل دعاءه، وأن يغفر له ويعتقه من النار، نريد منه ذلك كله.

قد فتح لنا الباب سبحانه وتعالى، وبين لنا طريق الإجابة، الذي ينبغي سلوكه، وفتح لنا بفضله كل يوم من أيام رمضان، لعله يصادف فيه إجابة الدعاء، وكذلك لياليه كلها لعلنا نصادف فيها تلك الإجابة، **ففي كل ليلة ساعة يرجى فيها الإجابة، والمرء ينام كل هذه الساعات !**

إذا كان ينام كل هذه الساعات، ولا يهمه ساعة يرجو فيها الله، ويدعو فيها الله سبحانه وتعالى، ويرفع له يده ويتململ بين يديه ليفرج عنه، تراه قد أحس

بالآخرة أو بالحزن عليها، تراه قد دعاه دعاء المؤمنين في قوله: ﴿ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٥]، وكذلك دعاؤهم أن يخفف لهم سبحانه وتعالى مدخلهم إلى قبورهم وخروجهم إلى حشرهم ونشرهم، ومرورهم على صراطهم، ووقوفهم ينتظرون صحائفهم بأيديهم بأيمانهم وشمائلهم.

أين نحن من هذه الأهوال والكرب، أين نحن من هذه المحن والمصائب في الدنيا والآخرة؟ باب الله تعالى قد فتح لنا لدعوة لا ترد ليلاً ونهارًا، دعوة مقبولة لا يردها المولى سبحانه وتعالى، **فهلا قمنا ليلة كاملة ندعو لا نبخل فيها على أنفسنا، وأن نحضر فيها الأدعية التي نريد أن يفرج عنا بها، لعل الله تعالى أن يستجب لنا فيها!**

هلا قضى المرء يوم صيامه في الدعاء والذكر يرجو بذلك أن تكون الدعوة المقبولة قد رفعت إليه وقد تلقاها سبحانه وتعالى بالرضا، وأثابه عنها سبحانه وتعالى بالعطاء، أم لا زال باخلاً على نفسه، باخلاً على آخرته، باخلاً على دنياه، باخلاً على ولده، باخلاً على رحمته، باخلاً على عتقه من النار؛ كل ذلك لا يساوي شيئًا أن يقف يومه وليله ثلاثين يومًا وثلاثين ليلة أن يُفرِّج عنه ويستجيب له سبحانه وتعالى، فقد فاز فوزًا عظيمًا.

قد علمنا إذن هذا الطريق، والمقصر المحروم هو الذي علم الطريق، ثم مُنع منه، أو قفل في وجهه هذا الطريق وأغلق عليه، وإذا به قد حُرم الخير كله، وهكذا قد

علمنا احتياجنا وضرورتنا إلى الله تعالى، وعلمنا في نهاية المطاف أن لا ملجأ منه إلا إليه، **وعلمنا أنه يقبل توبة التائبين، ودعاء الداعين، ورجوع الراجعين إليه سبحانه وتعالى**، وأنهم ما أن يتقربوا إليه شبرًا حتى يتقرب إليهم ذراعًا، وأنه ينتظر فيْئهم ورجوعهم سبحانه وتعالى.

إذا لم نسارع إلى ذلك، ولم تر قلوبنا وقد رقت، ودمعت العين ، وازداد الخوف و ظهر الخشوع على اللسان والقلب والجوارح، نعلم أن باب الإجابة ما زال مغلقًا، وما زلنا مساكين لا نستحق شيئًا من ذلك، ليزدد حينئذ بكاؤنا على أنفسنا أن قد وصلت لهذه الدرجة من الحرمان والإبعاد والطرد، ونحن لا نحس بها، ولا نتألم لها، كيف نعمل للآخرة، بهذه الحال؟

ليس لنا إلا هذا طريق، **الدعاء هو طريق المرء إلى الله**، وبابه إلى الله؛ وليعلم أنه إذا لم يقوه ربه لن يقويه أحدٌ، وإذا لم يغفر له لن يغفر له أحدٌ، وإذا لم يرزقه ربه، لن يرزقه أحدٌ، وإذا لم يخفف عليه لا يخفف عليه أحدٌ. من الذي يبارك في وقته؟ من الذي يأخذ بيده إليه؟ من الذي يغفر له؟ من الذي يرفع عنه الكرب والبلاء ؟ من الذي يصلح أخلاقه وعاداته؟ من الذي يتوب عليه؟ **هو الله تبارك وتعالى.. ولا أحد سواه.**

فإذا كان قد فات المرء ما فات من رمضان، ولم يشعر فيه بما ينبغي من التحقق بالمغفرة والعتق من النار، فإن الله تبارك وتعالى بكرمه وجوده ومنه وفضله ما زال يفتح هذه الليالي وتلك الأيام، ليستعيد أهل الإيمان فيها قوتهم ويجددوا فيها

نشاطهم ويقبلوا فيها على ربهم **وينتظروا فيها جائزة الرب سبحانه وتعالى**، فكلما دنت الأيام على الانتهاء، وكلما قرب ظهور النتيجة ازداد اجتهاد المرء وازداد قربه، يود أن تظهر نتيجته تبيض وجهه، يود أن تكون نتيجته حسنة وعاقبته الحسنى في هذه الأيام.

العشر الأواخر.. فرصتك الأخيرة

إذا دخلت أيام العشر من رمضان، **فقد جاءت أعظم أيام المجاهدة**، ليرى المرء ربه ما يكون سبب رضا الله عنه، وفتح الله عليه، وجود الله تعالى عليه، ومحبة الله له، وإقبال الله عليه، وانتشال الله جل وعلا له مما هو فيه، وحفظ الله له، ودفاع الله عنه، ومدد الله جل وعلا له، فهذه الأيام هي أيام ذلك.

وهذا الجد والاجتهاد ينبغي أن يكون **شعار المتقين الذين يريدون ألا يمر عليهم رمضان إلا وقد أخذوا جائزتهم**، أما أن يمر عليهم رمضان وقد رغمت أنوفهم ثم ينتظرون رمضان التالي فهذه وسيلة الشيطان التي يوقعهم فيها كل مرة! **لم تأت هذه العشر ليقول ﷺ: نريد أن ننام قليلاً، أو أن نستريح قليلاً!** إنما كانت راحته وسعادته في أن يكون قائمًا لربه، كما ذكر تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا** ﴾ [الفرقان: ٦٤]، وكما قال هو ﷺ: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ**»[1].

وهو الحال الذي ينبغي أن تطول مواصلة أهل الإيمان عليه؛ ليحققوا جائزة ربهم سبحانه وتعالى، وليفوزوا بمغفرته فإذا ما عيَّدوا كان حقًّا لهم أن يعيدوا ساعتها، وإذا أفطروا فرحوا كما ذكر النبي ﷺ: « **لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ؛ إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ،**

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (١٣٦٢٣) والنسائي (٣٩٤٠) وحسنه ابن حجر في فتح الباري (٣٥٣/١١) وصححه ابن القيم في زاد المعاد (٤٥/١) والحاكم (١٧٤/٢ ، رقم ٢٦٧٦) وقال : صحيح على شرط مسلم. = = ولفظه (عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - : قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : «حُبِّبَ إِلَيَّ : الطِّيبُ ، والنساء ، وجُعِل قُرَّةُ عَيْنِي في الصلاة»).

وَإِذَا لَقِيَ اللهَ تَعَالَى فَرِحَ بِصَوْمِهِ»[1] فوجد هذا الصوم الذي كانت عاقبته المغفرة والعتق من النار يشفع له يوم القيامة، كما ذكر النبي ﷺ يدخل الصائمون من باب الريان حتى لا يدخله غيرهم.

جاءت هذه الأيام ومازال الشعار الذي قد رفعناه - **وهو التصميم على تحقيق أسباب المغفرة** - مازال قائمًا، ليبذل المرء ما يرى الله تبارك وتعالى منه حسن الأداء وحسن الإقبال، ويُرى الله تبارك وتعالى فيه الصدق والعمل والإخلاص، ويُرى الله تبارك وتعالى ندمه على ما فرط فيه من الإقبال على ربه فيما فات من الأيام وأنه حزين على ترك هذا الإقبال على ربه، وحزين على ترك البذل، وحزين على ضعف الهمة، وفصم العزيمة والإرادة في الإقبال على الله تعالى، وأنه يود أن تتوجه همه كلها، وأعماله كلها، وأقواله كلها في ظاهره وباطنه إلى رضا ربه ومحبته والتعلق به إلى أن يكون مستعدًّا لآخرته، مقبلاً على ربه يحسن جهاده، وسيره له ويحاول البذل مما أعطاه الله تعالى من مال وجهد ووقت وصحة وفراغ وجاه وسلطان.

لذلك كان ينبغي لهذه الأيام أن **تبدأ بالتوبة والاستغفار وإصلاح الباطن**، وأن يستمر ذلك فيها، **ليهيئ المرء نفسه وقلبه لجائزة الله تبارك وتعالى**، وأن يصلح ما فاته من هذه الأيام التي تكاسل فيها، وتباطأ فيها، وانشغل فيها عن الله جل وعلا والتي شملت الغفلة فيها أحواله وأفعاله، والتي لم يحصل فيها من قرآنه وذكره ما

(١) رواه البخاري (١٩٠٤)، ومسلم (١١٥١).

يملأ قلبه نورًا وإيمانًا، وما يربط على هذا القلب ويثبته، ويجد نفسه مقبلاً على الآخرة لا تؤثر فيه الشهوات ولا الشبهات، يجد نفسه ثابتًا قويًّا راسخًا في إقدامه على السير إلى الله تبارك وتعالى، لا يجد نفسه مطية للشيطان والهوى، وما زال مترددًا، و منفرط العقد والشمل، لا، وإنما ينبغي أن يرى نفسه على الحال الذي يحبه ربه جل وعلا.

لذلك كانت هذه العشر هي الفرصة الأخيرة التي ينبغي أن يتفكر الناس في أن الله فتحها لهم قبل أن تنتهي كما انتهى رمضان من قبل!

حال النبي ﷺ في العشر الأواخر:

وقد ورد عن النبي ﷺ في هذه الأيام أنه كان يعتكف العشر حتى إذا كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يومًا[1]، وأنه: «**كَانَ إِذَا دَخَلَ العَشْرُ أَحْيَا اللَّيْلَ وَجَدَّ وَشَدَّ المِئْزَرَ وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ**»[2] فهذه مهماته ووظائفه ﷺ في العشر.

وأولها: الاعتكاف إلى الله جل وعلا فكان يحتجر حصيرًا[3] يعتكف فيه لا يكلم أحدًا، ويعتكف قلبه وقالبه وجسده على ربه سبحانه وتعالى **ويمتنع من مخالطة**

---

(١) رواه البخاري (٢/٧١٩ رقم ١٩٣٩) ولفظه (عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يَعتكفُ رمضانَ عشرةَ أيَّامٍ ، فلما كان العامُ الذي قُبِضَ فيه اعتكف عشرين).

(٢) رواه البخاري (٢٠٢٤) ، ومسلم (١١٧٤).

(٣) رواه البخاري (٢/٦٩٥ ، رقم ١٨٦٩) ، ومسلم (٢/٨١١ ، رقم ٧٨٢) ولفظه (عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- حَصِيرٌ وَكَانَ يُحَجِّرُهُ مِنَ اللَّيْلِ فَيُصَلِّى فِيهِ، فَجَعَلَ النَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلاَتِهِ وَيَبْسُطُهُ بِالنَّهَارِ، فَثَابُوا ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ؛ فَإِنَّ

الناس، والاقتراب من أنفاس الخلق ليخلو بالله جل وعلا، وهو قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، إذ ليس له ذنب أصلاً ﷺ، وإنما هو في درجة الشكر كما قال ﷺ: « **أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا** »[1]. لذلك ينبغي لأهل الإيمان التأسي به ﷺ لتكون هذه الخلوة بالله تعالى سببًا في إصلاح معاشهم ومعادهم وسببًا وتهيئة قلوبهم وجوارحهم لتحقيق أسباب المغفرة.

وقد كان كثير من الأئمة كالإمام أحمد وغيره رضي الله عنهم **يمتنعون عن الكلام في الاعتكاف مع أحد**، حتى ولو بالعلم والدراسة ليعتكف على ربه، وأن ينظر في هذه الشحنة التي ينبغي أن يحصلها، وفي أسباب المغفرة التي يجب أن يجاهد نفسه عليها.

فهذا كان اعتكافهم، وهو على خلاف ما عليه المعتكفين هذه الأيام، الذين كل همهم الاستئناس بالناس والكلام وتضيع الوقت والتأخر عن الصلاة، والأكل والشرب، وتضيع الأوقات، والركعات الطويلة في الصلاة، ثم النوم بعد ذلك، وكأن المرء قد جاهد وقتل نفسه وفعل ما لم يفعله الأولون والآخرون !

اللَّهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دُووِمَ عَلَيْهِ وَإِنْ قَلَّ». وَكَانَ آلُ مُحَمَّدٍ -صلى الله عليه وسلم- إِذَا عَمِلُوا عَمَلاً أَثْبَتُوهُ).

(١) رواه البخاري (٤/١٨٣٠ رقم ٤٥٥٦) ومسلم (٨/١٤١ رقم ٧٣٠٤) ولفظه (عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفَطَّرَ رِجْلاَهُ قَالَتْ عَائِشَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ فَقَالَ « يَا عَائِشَةُ أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا »).

وقد كان ﷺ لا يمنعه شيء من الاعتكاف على كثرة أشغاله من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم العلم والقيام على مصالح المسلمين، فكان يعتكف هذه العشر لله تعالى لتكون :

أولاً: سنده ومئونته في بقية عامه، ولتكون قوته ومدده.

ثانيًا: لتكون سببًا في مواصلة الليل بالنهار لتحقيق جائزة الرب.

والثالثة: ليلتمس فيها ليلة القدر، كما قال: « **مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ** »(١).

وهي الأمر المهم الذي جعل النبي ﷺ يقبل على ربه هذا الإقبال لا يكلم أحدًا، ولا ينام ولا يأكل ولا يشرب ﷺ مع ما هو فيه من الدرجة العليا فهو سيد البشر، وهو صاحب الوسيلة التي لا يصل إليها أحد إلا هو ﷺ.

إن أعذار أهل الإيمان اليوم للتخلف عن الاعتكاف، دليل على سوء أحوالهم، فمن كان وراءه دنيا إذا به يقول: أنا لا أستطع الاعتكاف ! سآتي للصلاة في الليالي فقط! ليس عندي إجازة! لا يمكنني الاعتكاف هذا العام لأن صحتي كذا؛ ولأنني كذا وكذا ! وهذه الأعذار الشيطانية المتعددة !

---

(١) رواه البخاري (٢٠٠٩)، ومسلم (٧٥٩)، ولفظه (عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّه عَنْهُ، قَال: كانَ رسُولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم يُرَغِّبُ فِي قِيَامِ رَمَضَانَ مِنْ غيْرِ أَنْ يَأْمُرَهُمْ فِيه بعزيمةٍ، فيقُولُ: « مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمانًا واحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّم مِنْ ذَنْبِهِ »).

وذلك كله مع علمه يقينًا أن النبي ﷺ، كان أكثر الناس أشغالاً وجهادًا وبذلاً ولم يكن ﷺ عنده وقت كحالنا، ورغم ذلك كان يعتكف العشر، أما نحن فوقتنا نضيعه في الأنس بالخلق وفي الأكل والشرب، ونضيعه في ما تعلمون ، وكان هو ﷺ كل وقته في ذكر الله تعالى إقبالاً ومحبة له جل وعلا.

وإن كان ﷺ في الدرجة العليا من ذلك، فإن تفرغه الكامل واجتهاده في هذه الأيام جاء ليبين تذلله لربه وانكساره له ﷺ وأنه مهما بلغ من الدرجة فلا يزال مقبلاً على ربه خاشعًا له متذللاً له سبحانه وتعالى يقوم على أوامره، ويقبل عليه، ويجاهد نفسه ويجاهد في أن يكون كذلك هو الأول كما هو دائما ﷺ.

وكما أشرنا إلى ضرورة **الخروج المألوفات لتحقيق المغفرة**؛ فقد جاء الاعتكاف لتحقيق ذلك. فالمرء لا يستطيع السير إلى الله تعالى، وقد رُبط وتقيد بمألوفاته وعاداته وأكله وشربه ونومه وراحته واستيقاظه وكذا وكذا مما نرى، لا، إن لم يتغير في فكره أن راحته في العبادة، وإن لم يتغير في أكله وشربه في أن يترك ذلك لله، وأن يستبدل شهواته من أن تكون شهوات النفس والبدن إلى شهوات القلب والروح في معرفة الرب ومحبته، وإذا لم يتغير في نومه ويتغير في كلامه وأنسه أن تتغير راحته فتكون راحته أن يقوم لله، أو أن يأنس فلا يأنس إلا بالله ويستوحش من الخلق، ومن معرفتهم، ومن كلامهم ومن صحبتهم، ولا يصحب منهم إلا من يعينه على ذكر الله تعالى ويذكره بالرب جل وعلا، في النهاية إذا لم يتغير في مألوفاته صار أسيرًا لها.

لا بد حينئذ أن تفكر في هذه المسألة كيف تغير مألوفاتك؟ كيف لا تجعل هذه المألوفات تأسرك كهذا الأسير الذي قال فيه النبي ﷺ: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد**

الدرهم»[1]، فذلك لا يزال عبدًا للدينار وللدرهم وكذلك أنت عبدًا للأكل وللبطن وللشهوات والنوم والراحة والشهوة، عبدًا للمظهر والملبس والمال والجاه، عبدًا لكل هذه الأحوال التي لا تريد أن تنفك منها، **متى تكون عبدا لله تعالى؟** قد جاءت العشر لتنفك من هذا الأسر وهذه العبودية لغير الله؛ ولتكون عبدًا له وحده سبحانه وتعالى.

فإذا ما جاءك الشيطان ليقول لك: لن تستطيع الاعتكاف هذا العام، إن شاء الله العام القادم سوف تعتكف مائة يوم، وسوف تعتكف العام كله، وسوف تخرج في سبيل الله بقية عمرك، **فاعلم أن كل هذا من تسويل الشيطان ليضيع عليك هذه الأيام** التي ينبغي أن تواصل فيها ليلك بنهارك.

الأمر التالي، كما جاء في حديث السيدة عائشة وأنس رضي الله عنهما أنه ﷺ: « **إِذَا دَخَلَ العَشْرُ قَامَ اللَّيْلَ** »[2] كان **يقوم ليله** ﷺ **لا يفتر فيه**، ينتظر أن يصادف ليلة القدر في هذه الليالي العشر ، «**وَأَيْقَظَ أَهْلَه** » وكان يوقظ أهله في هذه الأيام العشر، كل من أطاق الصلاة أقامه للصلاة ليشهد هذا الخير، وليشهد تلك الرحمة، وليشهد

---

(١) أخرجه البخاري (٣/١٠٥٧ ، رقم ٢٧٣٠) ، وابن ماجه (٢/١٣٨٥ ، رقم ٤١٣٥) . وأخرجه أيضًا : ابن حبان (٨/١٢ ، رقم ٣٢١٨) ، والبيهقي (٩/١٥٩ ، رقم ١٨٢٧٩) .. ولفظه «تَعِس عبدُ الدينار ، وعبد الدرهم ، وعبد الخميصة ، إن أُعْطِيَ رضي ، وإن لم يُعط سخط ، تعس وانتكس ، إذا شيك فلا انتَقَشَ ، طوبى لعبد آخذٍ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه ، مُغْبَرَةٍ قدماه ، إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في السَّاقة كان في الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يُشَفَّع».

(٢) رواه البخاري (٢٠٢٤) ، ومسلم (١١٧٤).

تلك النفحات من نفحات الله جل وعلا، وليكون كل أحد يأخذ نصيبه من رحمة الله تعالى، وأن تصيبه بركات الرب جل وعلا، وأن يتنزل عليه ما يتنزل من جود الله تعالى وكرمه وإحسانه في تلك الليالي، ليحصلوا شيئًا يقربهم من الله ويفرغوا قلوبهم إليه، وليأخذ بأيديهم ونواصيهم إلى الرب سبحانه وتعالى لتتغير أحوالهم.

الحالة التالية التي كان عليها النبي ﷺ: «**وَجَدَّ، وَشَدَّ المِئْزَر**»، شد المئزر: كناية عن اعتزال النساء في هذه العشر، وَجَدَّ: يعني اجتهد فيها ما لا يجتهد في غيرها، **يعني إن كان يصيب نومًا في العشرين الأولى من رمضان أما في هذه الأيام فما كان يصيب نومًا**، طوى فراشه ﷺ واعتزل النساء وقام لله تعالى.

لذلك كان النبي ﷺ ينتظر هذه الليالي، ويقبل على شأنه، ويرتب أحواله، وينظر فيما عند الله، ويأتنس بالله تعالى، ويأخذ قسطه من تفريغ القلب والبال لله جل وعلا، **وتفريغ الوقت والجهد والصحة للعبادة والنظر في سيره إلى الله تعالى، وإقباله عليه**.

التزين لليالي العشر:

فقد كان السلف يتزينون في هذه الليالي، فبعد ما سبق من القيام والاجتهاد، كانوا يتزينون لهذه الليالي التي يرجى فيها ليلة القدر **يتزينون في ظاهرهم والزينة الباطنة هي الأهم**.

كان تميم الداري[1] ﷺ له حلة جديدة يلبسها ليلة القدر، ثم يطويها إلى العام القادم، يتهيأ فيها لملاقاة الله تعالى والدخول على الرب جل وعلا، ويتزين به لينتظر بها الجائزة من الله جل وعلا.

ومن الزينة الظاهرة التي ينبغي أن يحرص عليها أهل الإيمان **أن يغتسلوا في ليالي الوتر** التي تتأكد فيها ليلة القدر، وأن يتزينوا فيها، وأن يزينوا مساجدهم، ينتظرون بهذه الزينة الظاهرة دخولهم على ربهم سبحانه، مع علمهم أنه لا تنفع هذه

---

(١) الصحابي تميم بن أوس بن خارجة بن سويد الداري رضي الله عنه. وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جماعة من الداريين منصرفه من تبوك فأسلم واستأذن عمر رضي الله عنه في القصص فكان يقص. عن حماد بن زيد قال ثنا أيوب عن محمد ان تميما الداري اشترى حلة بالف فكان يقوم فيها بالليل إلا صلاته قالوا لحماد بن زيد الف درهم قال نعم. وعن ثابت ان تميما الداري كانت له حلة قد ابتاعها بألف درهم وكان يلبسها في الليلة التي ترجى فيها ليلة القدر. وعن محمد بن سيرين قال كان تميم الداري يقرأ القرآن في ركعة. وعن أبي قلابة قال كان تميم الداري يختم القرآن في سبع ليال. وعن مسروق قال قال لي رجل من أهل مكة هذا مقام اخيك تميم الداري صلى ليلة حتى اصبح يقرأ آية ويرددها ويبكي: (**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**) (الجاثية :٢١). وعن محمد بن أبي بكر عن أبيه قال: زارتنا عمرة فباتت عندنا فقمت من الليل فلم ارفع صوتي بالقراءة فقالت يا بن أخي ما منعك ان ترفع صوتك بالقراءة فما كان يوقظنا إلا صوت معاذ القارىء وتميم الداري. وعن يزيد بن عبد الله قال قال رجل لتميم الداري ما صلاتك بالليل فغضب غضبا شديدا ثم قال والله لركعة اصليها في جوف الليل في سر أحب إلي من ان اصلي الليل كله ثم اقصه على الناس. فغضب الرجل فقال الله اعلم بكم يا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ان سألناكم عنفتمونا وان نسألكم حفيتمونا فاقبل عليه تميم فقال أرأيتك لو كنت مؤمنا قويا وانا مؤمن ضعيف ساعطيك أنا على ما اعطاك الله ولكن خذ من دينك لنفسك ومن نفسك لدينك حتى تستقيم على عبادة تطيقها. وعن صفوان بن سليم قال قام تميم الداري في المسجد بعد ان صلى العشاء فمر بهذه الاية: (**وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ**) (المؤمنون :١٠٤) فما خرج منها حتى سمع اذان الصبح. وعن محمد بن المنكدر ان تميما الداري نام ليلة لم يقم يتهجد فيها حتى اصبح فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذي صنع. من صفوة الصفوة لابن الجوزي- ص ١٦٤.

الزينة الظاهرة إلا بأن تتم بالزينة الباطنة، يعني بإصلاح القلب والتوبة إلى الله تعالى، والخروج من المظالم والآثام والمعاصي، والعزم على ألا يعود لذنب أبدًا، ويستغفر الله تعالى على ما كان، ويصلح بينه وبين ربه، وبينه وبين الناس.

أما أن يتزين ظاهرا ويكون باطنه على سوء الأخلاق ، والتكاسل عن الله تعالى وطول الأمل، ومن الحقد والحسد والغل، ومن القطيعة والبغضاء والشحناء، ومن الغفلة عن الله جل وعلا وعدم الاستعداد للقائه، فأنى يحصل جائزة الرب! كما قال: « **مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لله حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**» [1] لم يكن الله تعالى ليمنعه طعامه وشرابه المباح ليثيبه عليه، ثم يلابس هو الحرام !

الوصال ، تفريغ الوقت والقلب للأنس بالله تعالى

والأمر التالي أن النبي ﷺ - في درجته العالية- كان يواصل هذه الأيام، يعني كان **يواصل ليله بنهاره لا يُفْطِر** ﷺ ، توفيرًا للوقت والجهد، للإقبال، وتفريغًا للقلب والبال والهم، لأن يقبل على ربه سبحانه وتعالى، وما كان يأتيه من ربه من الفتوحات الإلهية والسعادات الربانية التي تنزل عليه بمعرفة ربه ومحبته والإقبال عليه والطمأنينة لذكره، كانت هذه غذاءه كما ذكروا في ذلك، لذلك كان يقول: «**لَسْتُ**

(١) رواه البخاري (١٩٠٣) كتاب الصوم ، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم .

كَهَيْئَتِكُمْ أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي» [1] لا يطعمه طعامًا وشرابًا وإلا لم يكن مواصلاً ولا صائمًا ﷺ، وإنما كان ما يهل عليه من فتوحات الرب سبحانه وتعالى ومن ذكره ومن الإنس به والإقبال عليه، وتلك النفحات العظيمة من نفحات الله جل وعلا.

لذلك كان يواصل، **وواصل أصحابه رضي الله عنهم**، كما كان هو يواصل ﷺ ليقتدوا به في ذلك، وليتفرغوا لعبادة الله تعالى، ويشغلوا همهم وبالهم بالإقبال على ربهم ينتظرون جائزته، ويلتمسون تلك الليلة ليلة القدر صادفوها، فقالوا: «**إِنَّكَ تُوَاصِلُ**»[2]، فنهاهم عن الوصال ﷺ وقال: «**مَنْ كَانَ مُوَاصِلاً فَلْيُوَاصِلْ إِلَى السَّحَرِ**» [3] تخفيفًا عليهم ورحمة بهم وتخفيفًا على غيرهم ممن يأتي ولا يستطيع ذلك فجعلوا فيها أكلة واحدة في السحر إفطارًا وسحورًا، ويفرغون الوقت كله للأنس بالله تعالى، والاستغفار والبحث في أعمالهم وأقوالهم لتحسين معاملاتهم مع ربهم لمحاسبتهم لأنفسهم، فلا كلام ولا ائتناس إلا مع الله ولا تذكير ولا ذكر إلا بالله، ولا نوم ولا راحة إلا في القيام والتعبد لله سبحانه وتعالى إلى غير ذلك مما يكون سببًا للتأهل للفوز بجائزة الرب، ويكون كذلك سببًا لتحصيل ليلة القدر.

---

(١)البخاري (٢/٦٩٣ ، رقم ١٨٦٢). ولفظه (عن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (لا تواصلوا، فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر) . قالوا: فإنك تواصل يا رسول الله. قال: (لست كهيئتكم إني أبيت لي مطعم يطعمني وساقٍ يسقين).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

وقد واصل النبي ﷺ بالصحابة يومًا ويومًا حتى ظهر الهلال، حتى إذا خرج إلى صلاة العيد أفطر على هذه التمرات[1] التي رأيناها من سنته ﷺ. **فانظر إلى تصميمهم على المواصلة**، وانظر كيف كان النبي ﷺ يواصل عندما تدخل هذه الأيام الأخيرة قرب تعرض المرء للرحمة والعتق من النار، فلا يأكل ولا يشرب ، ليكون أدعى إلى التعرض لنفحات الله إذا رأه تبارك وتعالى على هذه الحالة.

أنت إذن في هذه العشر في كل حركاتك وسكناتك منشغل بربك، تود أن يكون ما بينك وبينه سبحانه وتعالى الحال التي إن خرجت بها من رمضان فقد خرجت بالقبول، خرجت بجائزة الرب، خرجت بأن تكون من هؤلاء المتقين، الأولياء الخلص لله سبحانه وتعالى الذين بينهم وبين ربهم ما ذكر في هذا الحديث: «**ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ورجله التي يمشي بها ويده التي يبطش بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**».[2]

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٥/١ ، رقم ٩١٠) ولفظه (عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - : قال : «كان رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- لا يغدو يوم الفطر حتى يأكلَ تَمَرات ، ويأكلُهنَّ وِتْرا». أخرجه البخاري. وفي رواية الترمذي : «أن النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- كان يفطر على تمرات يوم الفطر ، قبل أن يخرجَ إلى المصلَّى»).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٨٤/٥ ، رقم ٦١٣٧) وابن حبان (٥٨/٢ ، رقم ٣٤٧) ، والبيهقي (٢١٩/١٠ ، رقم ٢٠٧٦٩). ولفظه (عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسولَ الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: من عادى لي وَلِيّا، فقد آذَنتُه بحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مِنْ أداءِ ما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أُحِبَّهُ، فإذا أحببتُهُ كُنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألَني أعْطَيتُه، وإن استَعَاذَ بي أعَذْتُه، وما تردَّدتُ عن شيء أنا فاعله، تردّدي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مَساءَتَه»).

في العشر الأواخر : زيادة الاجتهاد والاهتمام بقبول العمل

وهي الحالة المهمة كذلك في العشر الأواخر، بأن يكون أهل الإيمان في نهاية أعمالهم **على الاجتهاد الزائد** والسعي الزائد ومواصلة الليل بالنهار، وذلك لقرب ظهور النتيجة، وليكون ذلك سببًا لتحصيل جائزة الله وأن يختم لهم أعمالهم بالخاتمة الحسنة.

وننبه على هذه الحالة لأن أحوال أهل الإيمان اليوم على العكس، **فما أن تقترب نهاية أعمال الطاعات حتى يصيبهم الكسل والفتور والإحباط ويميلون إلى الرجوع إلى سيرتهم الأولى**، وهذا من أخطر الأشياء التي تتسبب في عدم الخروج بالمغفرة.

والسبب في ذلك أنه إذا كانت خاتمة الأعمال هو الاجتهاد وليس الملل والفتور والتردد وانفراط الحال؛ فإنه **يوشك أن يكون بعد رمضان أحسن حالاً وأقرب إلى الله تعالى** وأَثبتَ على طريقه سبحانه وتعالى، أما الوصول في نهاية العمل إلى الفتور وإلى الملل وقلة الأعمال والعودة إلى ما كانت عليه من الكسل ومن التواني والدعة، يوشك أن يزداد عليك ذلك بعد رمضان؛ فما أن ينتهي رمضان حتى تعود مرة أخرى إلى ترك القيام والصيام والذكر وقراءة القرآن وهي الحالة السوداء التي تصيب المؤمنين بعد نهاية رمضان كأنهم لم يقوموا ولم يصوموا كأنهم لم يقبلوا على ربهم كأنهم لم يقرأوا قرآنه؛ فهذه الحالة تستوجب من المؤمنين اليوم مواصلة نهارهم وليلهم على الاجتهاد الزائد صلاة وذكرًا وقرآنًا.

بعد الاجتهاد الشديد : الترقب لقبول العمل

وهو ما بينه النبي ﷺ في كلام الله تعالى، في قوله: ﴿ **وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٦٠] فبين النبي ﷺ أن هؤلاء الذين يصومون ويصلون ويتصدقون **ثم يخافون ألا يتقبل منهم** [1] وهو تفسير قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ** ﴾ [المائدة: ٢٧]، وقد فتح رمضان لتقوى الله تعالى، فمن الذي حصل هذه التقوى ليأتي في نهاية العمل ليقول قد تقبلت أعماله وينتظر جائزة الله تعالى؟

لذلك ينبغي أن يكون في محل نظر المؤمنين من هذه اللحظة ألا يكون اهتمامهم بشدة البذل في العمل والاجتهاد فيه، **بقدر ما يهتمون بقبول هذه الأعمال**، فيبذلون وقتهم وجهدهم ومالهم وأنفسهم، ثم يأتون في نهاية العمل يترقبون **هل تقبل منهم أو لا ؟**

---

(١) رواه الترمذي في سننه (٣١٧٥) ، وابن ماجه في سننه (٤١٩٨) ، وصححه الحاكم في المستدرك (٤٢٧/٢) ووافقه الذهبي. ولفظه (عن عائشة - رضي الله عنها - : قالت : قُلتُ : يا رسول الله ، {والَّذين يُؤتُونَ ما آتَوْا وقُلُوبُهُمْ وجِلَةٌ } [المؤمنون : ٦٠] أَهُمُ الذين يَشْرَبُون الخمرَ ويَسْرِقُونَ ؟ قال : «لا ، يا بِنْتَ الصِّدِّيق ، ولكن هم الذي يَصُوُمون [ويصلُّون] ويَتَصَدَّقون ، ويخافُون أَنْ لا يُتَقَبَّلَ منهم).

لذلك كان ابن عمر يقول: لو علمت أن الله تعالى تقبل مني مثقال ذرة من عمل أو درهمًا واحدًا صدقة ما كان غائب أحب إليّ من الموت [1] فإن الله يقول: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧].

هو كان يعمل على سبيل المغفرة، وعلى سبيل العتق من النار، وعلى سبيل رحمة الله تعالى على سبيل أن يتقبل الله تعالى عمله ذلك، أن يتوب عليه فيخلصه من النار ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وها قد فاز، فما البقاء في الدنيا ؟هو يعمل كل ذلك في الدنيا لهذه اللحظة ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ لذلك كانوا أشد اهتمامًا بقبول العمل بعد شدة العمل والاجتهاد فيه.

وهذا الحال ينبغي أن يعتري المؤمنين اليوم أن ينظروا ماذا قدموا ليكون هذا العمل لائقًا بالمغفرة ثم ينظرون في هذا العمل اللائق بالمغفرة هل قُبل أو لا؟

(١) أورد هذا الأثر عن ابن عمر الحافظ ابن حجر في فتح الباري.

قبل الخروج من رمضان: الاستغفار والتوبة

فإذا رأى المرء كيف تتفلت أيام رمضان، وأن رمضان يوشك أن ينتهي، **حتى لم يبق فيه إلا يوم أو يومان**، ثم يقال: فاز فيه من فاز، وخسر فيه من خسر، فينبغي أن ينظر المؤمنون المتقون إلى هذا الموسم من مواسم المغفرة، وهو ينتهي ويتلاشى وتنقضي أيامه، بعين التحسر إلى فعلهم، وما كان من سوء استقبالهم لهذا الشهر الكريم، **وينظروا بعين الحزن على أنهم ما قاموا فيه بالواجب له بحق الضيافة التي تستوجب المغفرة وتستوجب العتق من النار وتتنزل بها رحمة الله تعالى**.

فهم حزانى على هذا الحال الذي يُقال فيه من الذي ينتظر جائزة الرب تبارك وتعالى غدًا أو بعد غد؟ من الذي قد هيأ نفسه فهو ينتظر هذه الجائزة، ومن الذي قام بحقها ومن الذي بذل البذل المطلوب ليكون أهلاً لها ؟

لذلك كانوا **يقضون آخر أيامهم في محاسبة النفس** على ما مضى، وعلى ما فرطوا، يحاولون استدراك ما فات، ويظهر منهم **الحزن الشديد والضيق والألم والبكاء على أنهم لم يفعلوا ما يستحقون به جائزة الله تعالى**؛ لم يفعلوا ما يكون سببًا لحياة قلوبهم، فلم ير القلب ما يمتلأ به، ولم يحس القلب بهذه الأحوال الجميلة وتلك السمات المرضية عند الله تبارك وتعالى، لم يحس أنه قد امتلأ قلبه من محبة الله تبارك وتعالى، ومن نور الله تبارك وتعالى، لم يحس أن قلبه قد امتلأ أنسًا وشوقًا وإقبالاً على الله جل وعلا، وآثر الركون إلى ربه، والركون إلى دار الخلود، والتجافي عن دار

الغرور، والثبات في السير، ودوام الذكر، وقراءة القرآن، وكراهة المعاصي والذنوب والسيئات، والحزن على الغفلات والاستعداد للقيام بمسئوليات الدين.

من لم يستشعر قلبه بعدُ ذلك، وأضاع تلك الأيام في ألا يحصل هذه السعادات من ربه جل وعلا، **فلعل تلك المحاسبة وذلك الندم أن يكون سببًا في أن يرحمهم ربهم ، وأن يتوب عليهم** في يومهم هذا أو في ليلتهم أو في غدهم.

ها قد فتح الله تبارك وتعالى الأيام الأخيرة للمؤمنين حتى يستدركوا ذلك كله، وحتى يتشبثوا بباب الله سبحانه وتعالى، ويديموا الوقوف له،

والتضرع أن يفتح عليهم، ويتوب عليهم،

ويغفر لهم ويسامحهم، ويمدهم بمدده سبحانه وتعالى،

ويؤنسهم بأنسه جل وعلا، ويطهر قلوبهم وجوارحهم،

ويديم عليهم ذكره سبحانه وتعالى، **فإذا ما تحقق شيء من ذلك رأيت نفسك وقد صرت شخصًا جديداً مع الله تبارك وتعالى**.

الحذر الحذر أن تضيع تلك الأيام كما ضاع غيرها، الحذر الحذر أن تفرط في نفسك وفي سعادتك، الحذر الحذر في أن تكون سبب شقاء نفسك وبعدك، **الحذر الحذر** أن يكون سبب طردك وإبعادك بسوء عملك وبتهاونك وتكاسلك وتقديم

الدنيا الفانية والراحة الزائلة على الراحة الباقية وعلى الحياة الدائمة، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

لذلك فقد اختُصت تلك الأيام القلائل بوظائف جديدة وأحوال مختلفة ينبغي أن تسيطر على حال المؤمنين.

الاستغفار في نهاية العمل:

أول ذلك أن يكون أهل الإيمان أشد استغفًارا في نهاية العمل ويكون الاستغفار هو الطابع الذي يطبعون به أعمالهم لترتفع إلى الله تعالى؛ لما نزل قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣ ﴾ [النصر: ١ – ٣] كان إشارة إلى قرب نهاية عمره الشريف ﷺ فأمر أن يختمه بالاستغفار فلم يكن يترك ﷺ الاستغفار بعد ذلك إلى أن لقي ربه مع شدة الاجتهاد الذي رأيناه منه ﷺ فكان يقول: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» [1] سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي، لا يفتر عنها منذ نزلت عليه هذه الآية حتى لقي الله تعالى.

لذلك ينبغي على المؤمنين أن يطبعوا عملهم بطابع الاستغفار الذي يجبر الخلل في هذه الأعمال، والذي يبين حال التقصير الذي يتنصلون منه إلى الله تبارك

(١) رواه البخاري (٨١٧) ومسلم (٤٨٤) .

وتعالى، والذي يبين في نفس الوقت أنهم لم يؤدوا عملهم على ما ينبغي، وأنهم يرفعون إلى الله تبارك وتعالى أكف الندم على ما كان منهم، وأكف **الإقرار بالتقصير التي تستوجب أن يستغفروا الله تعالى**.

وحالة الاستغفار قد يبينها الله تبارك وتعالى، حال الإفاضة من عرفات، فيفيض الناس من عرفات مغفورًا لهم ومع ذلك أمرهم المولى سبحانه وتعالى بأن يستغفروا الله تعالى فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [البقرة: ١٩٨ - ١٩٩]، يعني **بعد أشد الاجتهاد في العبادة وانتظار المغفرة والتوبة وانتظار رحمة الله تعالى، حينئذ يستغفرون الله تبارك وتعالى؛ لأنهم لا شك كانوا مقصرين في أعمالهم**، وأن أعمالهم قد وقع فيها من الخلل ما يستوجب الاستغفار، وأن الاستغفار ينبغي أن يكون الطابع على هذه الأعمال التي تطلع إلى الله تعالى، لا يكون غير الاستغفار هو الذي يطبع هذه الأعمال.

لأنه **إذا نظر المرء إلى عمله واستحسنه لا يصعد هذا العمل إلى الله جل وعلا**، وإنما يصعد إلى الله ذلك العمل الذي قد طبع بالاستغفار ونظر إليه المرء نظرة التقصير وأنه لا يليق بالله تعالى وأنه ما أدى حقه جل وعلا، وأنه في نهاية المطاف يرفعه وهو يتذلل إليه أن يقبل شيئًا منه سبحانه وتعالى.

التوبة:

وهي ما بدأنا بها في أول رمضان، وينبغي أن نخرج بها منه أيضًا، بمعنى **أن يتوب المؤمنون التوبة العامة** التي ينتظرون بها أن يكون من قام رمضان غفر له، ومن

صام رمضان غفر له، ومن قام ليلة القدر غفر له؛ فإن من قام ليلة القدر غفر له في ليلته لا ينتظر نهاية الشهر حتى يغفر له، وإنما المغفرة المتعلقة بالصيام والقيام هي التي ينتظر فيها نهاية الشهر وإذا جاءت نهاية الشهر، فمن استحق بصيامه المغفرة غفر له، ومن استحق بقيامه المغفرة غفر له بفضل الله تعالى.

ورأي جمهور العلماء إن من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له، ولكنه لا بد وأن يكون قد تحقق بالتوبة من الكبائر، وكذلك من قام رمضان غفر له لا بد وأن يصاحب ذلك التوبة حتى تمحو سيئاته كلها، ولا يبق له ذنب، أما أن ينتظر ذلك بغير صيام يستوجب المغفرة أو قيام يستوجب المغفرة فإن ذلك محض الخيال محض الآمال التي نحن فيها اليوم.

لذلك كانت التوبة أهم الأعمال التي يختم بها المرء عباداته وطاعاته أن يتوب فيما بينه وبين الله تعالى **وأن يعزم على ألا يعود إلى الذنب**.

لأنه لو كان في مثل هذه الأيام من أيام الطاعة ينتظر أن تنتهي هذه الأيام ليعود إلى ما كان عليه من التفريط والتقصير أو من السيئات والذنوب، **أو أنه كان يعمل من الذنوب والسيئات شيئًا ما وينتظر مرور رمضان حتى تعاوده نفسه إلى أن يقع مرة أخرى فيها فعمله غير مقبول** وعمله مردود، وباب التوبة وباب القبول في وجهه مغلق، إلا أن يقدم التوبة والعزم على ألا يعود إلى ذنب أبدًا لا أن ينتهي رمضان فيرجع إلى ما كان فيه فلا ينتظر القبول.

وذلك لأن **دليل القبول التوفيق للحسنة بعد الحسنة ودليل الرد هو عمل السيئة بعد الحسنة**، فإذا عاد إلى السيئات والمعاصي والتفريط في العمل الصالح دل على أن عمله لم يقبل وأنه لم يكن صالحا وأنه إذا عاد إلى الحسنات وإلى العمل الصالح بعد العمل الصالح دل على قبول هذه الأعمال؛ لأن من جزاء قبول العمل الصالح أن يوفق بعده للأعمال الصالحة.

والتوبة بينه وبين ربه، أن يعزم على التنصل من الذنوب **فلا يمكن أن ينتظر مغفرة الرب وجوائزه وهو مُصِرّ على الذنوب والمعاصي والتفريط والتقصير**، من الذي قال ذلك؟

وكذلك لابد أن **يتنصل من الذنوب والمعاصي فيما بينه وبين الناس وأن يكون التسامح والتصافي والتجاوز بين المؤمنين هو شعارهم** حتى يتجاوز الله تعالى عنهم وحتى تكون توبتهم في محل القبول عند الله تعالى؛ لأنه سبحانه وتعالى إذا كان لا يغفر في النصف من شعبان لمتشاحنين أو مشرك [1] فمن باب أولى أن يكون هذا الشرط في رمضان أيضًا، فيؤتى بعمله ليرفع إلى الله سبحانه وتعالى فيقول: « **أَنْظِرَا هَذَيْنِ**

---

(١) رواه ابن ماجه (١/٤٤٥ ، رقم ١٣٩٠) وابن حبان (١٢/٤٨١ ، رقم ٥٦٦٥) ، والطبراني (٢٠/١٠٨ ، رقم ٢١٥) والبيهقي في شعب الإيمان (٣/٣٨١ ، رقم ٣٨٣١). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/١٢٦): رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجالهما ثقات. ولفظه (عن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : (يطلع الله إلى خلقه في ليلة النصف من شعبان فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن) .

حَتَّى يَصْطَلِحَا» [1]حتى يعودا إلى التصافي إلى التجاوز إلى التسامح الذي ينبغي أن يكون خاتمة الأعمال في نهاية رمضان.

(١) أخرجه أحمد (٢/٤٠٠ ، رقم ٩١٨٨) ، ومسلم (٤/١٩٨٧ ، رقم ٢٥٦٥) ، وأبو داود (٤/٢٧٩ ، رقم ٤٩١٦) ، والترمذي (٤/٣٧٣ ، رقم ٢٠٢٣) وقال : حسن صحيح. ولفظه (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلاَّ رَجُلاً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ فَيُقَالُ أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا ».)

قبل الخروج من رمضان: التفكر في سرعة انقضاء الدنيا

وهي الموعظة الثانية التي ينبغي أن يراها المرء في وداع رمضان وهو **أنه لا يلبث رمضان أن يبدأ حتى ينتهي**، فلا يبقى إلا قليلاً، **وهذا هو حال الدنيا** كما ذكر الله تبارك وتعالى لما سئلوا في الآخرة: ﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ۝١١٣ ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٣]، ﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ۝١٠٣ ﴾ [طه: ١٠٣] حتى يقول المولى: ﴿ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ۝١٠٤ ﴾ [طه: ١٠٤] فالعمر لا يلبث شيئًا إلا وقد انتهى، إذا أتوا إلى الله تعالى كان هذا الحال الذي هم فيه، كم لبثتم؟ عشية أو ضحاها ؟ كما يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١١٤ ﴾ [المؤمنون: ١١٤].

وهذا اليوم الذي نحن فيه هو يوم واحد، والغد يكون عند الله تبارك وتعالى كما قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ ﴾ [الحشر: ١٨].

ومحل العبرة في هذه المسألة أن **يعلم المرء أن عمره يمر على هذه السرعة التي لا يشعر بها**؛ فيومه يهدم أسبوعه، وأسبوعه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره، ويوشك أن يلاقي الله تعالى.

لهذا ينبغي على المؤمنين في هذه الأيام أن **يتفكروا في سرعة انقضاء الدنيا وسرعة إقبال الآخرة**، وأنهم ينبغي أن يكونوا من أبناء الآخرة فيستعدوا الاستعداد لذلك الكافي في بقية عامهم؛ **لأن رب رمضان هو رب شوال ورب شعبان ورب بقية الأشهر**، وأن هذه الأشهر تمر بهذه السرعة التي يمر بها رمضان، وأن الحازم الحَذِر الذي يخاف أن يؤخذ بغتة فيوطن نفسه على الاجتهاد وعلى الحذر من أن ينقضي عمره على الغفلة أو المعصية.

هو في آخر أيام رمضان حزين، خائف، وَجِل، أن تمر أيامه كما مرت من قبل، وأيام العمر تمر كما مر رمضان لا يشعر بها المرء، وإنما يشعر بسرعتها وبسرعة انقضائها في رمضان لقصر أيامه، وإن أيام المرء كلها على هذا الحال، ولكنه لا يشعر.

فيتعلم المرء من هذه الموعظة سرعة انقضاء عمره، لأنه إذا علم ذلك لم يسوف عمل اليوم إلى الغد، ولم ينتظر ليقول إن شاء الله في العام القادم سوف أعتكف، وسوف أبدأ وسوف كذا وكذا لأنه لا يضمن عمره وأنه يوشك أن ينتهي، ويرحل إلى الله تعالى، فيكون ذلك أدعى للاستمرار على الطاعة والعمل الصالح، وهو قول النبي ﷺ : «**إِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ، قَالَ وَمَا اسْتَعْمَلَهُ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ**»[1].

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (١١٦٢٥) والترمذي في سننه (٢١٤٢) وقال : هذا حديث حسن صحيح

ومعنى ذلك أنه **لا بد وأن يكون في كلِّ أحواله على أعمال صالحة**؛ لأن هذه الدنيا توشك أن تنتهي على هذا الحال الذي انتهى عليه رمضان ويفرط كما فرط في رمضان، وقد خاب وخسر من أتى عليه رمضان فلم يغفر له، كذلك خاب وخسر من أتى عليه عمره فمر على هذا الحال وهو يقول غدًا، وهو في الغفلة وهو في البعد وهو في التقصير، وهو في الذنوب وهو في المعاصي حتى يفاجئه الموت.

أما المؤمنون المتقون فهم في أعمال صالحة في كل أحوالهم حتى إذا انتقل إلى الله تعالى انتقل على عمل صالح فدل على أن الله تعالى يحبه، وأنه في موضع رحمة الله تعالى به وإرادة الخير له.

لذلك قال النبي ﷺ في أحاديث كثيرة أنه لم يبق من الدنيا الكثير، كقوله ﷺ عندما كانت الشمس على رءوس الجبال: «**لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا مَضَى مِنْهَا إِلَّا كَمَا بَقَى مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى مِنْهُ**»[1] فانظر إلى فترتك أنت المحدودة التي لا تساوي يومًا أو بعض يوم، أو عشية أو ضحاها ثم إذا بك عند الله تعالى في الآخرة.

وهذا يدل على قلة مكثه في الدنيا، وقلة بقائه فيها، لذلك يقال: يوشك هؤلاء المتعبون الذين أتعبوا أنفسهم في البذل والجهاد والدعوة والصلاة والصيام والقيام يوشك أن يرفعه عنهم، أن يأخذهم إلى رحمته.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٦١٣٨) وأخرجه الحاكم (٤٨١/٢ ، رقم ٣٦٥٦) وقال : صحيح الإسناد.

النبي ﷺ قال: «لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا كَصَبَابَةٍ» (١)، الصبابة بقية الماء في نهاية الإناء في أو الكوب ، لم يبق إلا كصبابة يتصابها صاحبها، ومر ﷺ على قوم يصلحون خصًّا لهم قد وهي، أي يصلحون حجرة ينامون فيها من الخوص، قال النبي ﷺ لهم: «الْأَمْرُ أَعْجَلُ مِنْ ذَلِكَ» (٢)، أعجل من أن يصلحوا خصًّا لينا موا فيه!

فالعاقل علم سرعة انقضاء هذه الفترة القليلة وعلم أن لبثه في الدنيا قليل. أين أقرباؤك وشبابك وأحبابك؟ ذهب بهم الموت، وتنتظر ذلك وأنت لا تقدم شيئًا بين يديك إلى الله تبارك وتعالى يكون سبب النجاة !

قال أحدهم: «كم مضت عليك؟ قال: ستون عامًا قال: توشك أن تصل إلى الله قال: إنا لله وإنا إليه راجعون قال: أتدري معناه؟ قال: من علم أنه لله عبدٌ علم أنه إليه راجع، فلا بد أن يرجع العبد إلى سيده، ومن علم أنه راجع علم أنه موقوف أين كنت وماذا فعلت وماذا قدمت؟ وماذا فعلت فيما أمرتك ونهيتك؟ وهل أديت ما أمرتك به أو لا علم أنه مسئول ومن علم أنه مسئول، فليعد للسؤال جوابًا، قال: وما

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه (٧٦٢٥) في حديث طويل منه (عَنْ خَالِدِ بْنِ عُمَيْرٍ الْعَدَوِيِّ قَالَ خَطَبَنَا عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِصُرْمٍ وَوَلَّتْ حَذَّاءَ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاَّ صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ يَتَصَابُّهَا صَاحِبُهَا وَإِنَّكُمْ مُنْتَقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لاَ زَوَالَ لَهَا فَانْتَقِلُوا بِخَيْرِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ).

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٦٤٦٦) والترمذي (٥٦٨/٤ ، رقم ٢٣٣٥) وقال : حسن صحيح . وابن ماجه (١٣٩٣/٢ ، رقم ٤١٦٠) وصححه ابن حبان (٢٦٣/٧ رقم ٢٩٩٧).

الحيلة قال أن **تحسن فيما بقي يغفر لك ما بقي** وما مضى وإلا أخذت بما بقي وما مضى.

يوم قليل هو الدنيا، فهلا تحمل المرء فيه البذل والعبادة والطاعة حتى تكون هذه المدة القصيرة التي يحياها سبب سعادته وحتى ينتظر بها ما أعد الله تعالى للمتقين من قبول عملهم ومن رفع درجاتهم ومن أن يكونوا عند الله تبارك وتعالى، مع النبيين والصديقين فانظر إلى سرعة الرحيل التي أنت فيها ولا تشعر وإلى قلة المكث واللبث في هذه الدنيا.

فليختم المؤمنون أيامهم إذن بهذه الموعظة، لعل الله تعالى أن ينظر إليهم نظرة تكون سبب رحمتهم سبحانه وتعالى وأن تكون سبب المغفرة لهم عندما يراهم على حال قد يئسوا من أعمالهم، ويئسوا من أنفسهم، ويئسوا من كل شيء يمكن أن يقدموه، وكانوا هم السبب في ذلك لكسلهم ولتوانيهم ولتقصيرهم ولتسويفهم ولطول أملهم، بكوا عند ذلك فرأى الله تبارك وتعالى بكاءهم وحزنهم فغفر لهم، اطلع عليهم فغفر لمحسنهم وتجاوز عن مسيئهم، فانظر أي الأحوال تود أن يكون حالك عند تسليم الجوائز.

الفصل الثالث:

الصيام سر بين العبد وربه

الصيام سر بين العبد وربه

ونختم الكلام عن رمضان بالقول المعلوم: إن الصيام سر بين العبد وبين ربه سبحانه وتعالى[1]، وهي القضية الخطيرة في الصيام التي ينبغي أن يتعلمها المؤمنون، **وهي الفاصل بين إرادة الله تعالى** وما عنده من محبة ومعرفة وتوحيد، وتعلق به وسير إليه سبحانه وتعالى، وتقديم مرضاته ومحابه على كل رضا ومحبة، وبين الميل إلى الدنيا وشهواتها.

فإذا قلنا: إن الصيام سر بين العبد وربه، فهل يفتح الله سبحانه وتعالى على هؤلاء الذين قصروا في حقه، وتأخروا عن السير إليه، وقدَّموا راحتهم وقدَّموا هذا البدن الفاني على القيام للرب سبحانه وتعالى؟! تراه يقدم هؤلاء ويعينهم ويوفقهم ويسددهم ويحفظهم؟ إننا هكذا قد قلبنا الآية وعكسنا الحال: أن ينتظر الكسالى من الله تعالى أن يتوب عليهم، وأن يغفر لهم، وأن ينتظر هؤلاء المقصرون المفرطون أن يفتح عليهم، وأن يأخذ بأيديهم إليه، وأن يقويهم على الطاعة، وهم على ما هم فيه، بل يزدادون سوءًا !

---

(١) ذكره كثير من العلماء، يقول القرطبي في تفسيره: ((يقول الله تبارك وتعالى كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به) الحديث. وإنما خص الصوم بأنه له وإن كانت العبادات كلها له لأمرين باين الصوم بهما سائر العبادات. أحدهما – أن الصوم يمنع من ملاذ النفس وشهواتها ما لا يمنع منه سائر العبادات. الثاني – أن الصوم سر بين العبد وبين ربه لا يظهر إلا له، فلذلك صار مختصا به. وما سواه من العبادات ظاهر، ربما فعله تصنعا ورياء، فلهذا صار أخص بالصوم من غيره. وقيل غير هذا) انتهى كلامه. وقال ابن رجب في لطائف المعارف: (إن الصيام سر بين العبد و ربه لا يطلع عليه غيره لأنه مركب من نية باطنة لا يطلع عليها إلا الله و ترك لتناول الشهوات التي يستخفي بتناولها في العادة و لذلك قيل : لا تكتبه الحفظة و قيل : إنه ليس فيه رياء كذا قاله الإمام أحمد و غيره و فيه حديث مرفوع مرسل و هذا الوجه اختيار أبي عبيد و غيره)

فالسؤال: كيف يخرج المرء من الصوم وصار بينه وبين ربه سرّ؟ **كيف يخرج المرء من الصيام وقد صار بينه وبين ربه معرفة جديدة**، صار بينه وبين ربه شيء إذا دعاه استجاب له به، صار بينه وبين ربه محبة لا يقدم عليها شيئًا في الدنيا ولا في الآخرة، صار بينه وبين ربه معرفة خاصة يعرفه بها سبحانه وتعالى، ويعرف هو ربه بها جل وعلا كأنه خلق جديد يختلف عن بقية الخلق، أن يقول: أي ربي؛ فيقول له: نعم عبدي.

انظر في قصة يونس عندما قال: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤] يعني: لما رفع يونس عليه السلام دعاءه إلى الله: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] قالت الملائكة: أي ربي، هذا صوت معروف من بلاد غريبة. قال: ألا تعرفونه إنه صوت عبدي يونس. قالوا: الذي لا يزال يرفع له عمل صالح ودعوة مستجابة؟ قال: نعم. قالوا: هلا رحمته لما كان منه؟ فأمر الحوت أن يلفظه كما ذكر الله تعالى في بقية القصة [1].

---

(١) أخرجه الطبراني في الدعاء (٣٥/١ ، رقم ٤٧) وأورده ابن كثير في البداية والنهاية (٢١٩/١) وقال: يتقوى بغيره، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠١/٧) : فيه من لم يسمه، وفيه ابن إسحاق وهو مدلس وبقية رجاله رجال الصحيح. ولفظه (عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن يونس عليه الصلاة والسلام لما دعا في بطن الحوت قالت الملائكة عليهم السلام: يا رب هذا صوت معروف من بلاد غريبة فقال الله عز وجل : أما تعرفون ذلك ؟ قالوا : ومن هو : قال: عبدي يونس , قالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يُرفع له عمل متقبَّل ودعوة مستجابة ؟ ! قال: نعم , قالوا : يا رب أفلا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ قال: بلى , قال : فأمر الحوت فطرحه في العراء).

كان ما بينه وبين ربه من سر، وبينه وبين ربه من معرفة، وبينه وبين ربه سبحانه وتعالى من علاقة هو السبب في هذه الاستجابة، لذلك قال: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤].

وقد كان عكس ذلك مع فرعون، أنه عندما جاءه الغرق قال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠] كان الرد ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ [يونس: ٩١-٩٢].

ومن القصص أيضًا قصة الحسن البصري[1]، لما هرب من شرطة الحجاج ودخل بيت محمد أبي حبيب فقال: أليس بينك وبين ربك ما تدعوه به فيسترك عنهم؟ فدخل ودخل الشرط خلفه فلم يروه، فلما ذهبوا إلى الحجاج قالوا: لم نجده في البيت. قال: لقد كان في البيت، ولكن الله طمس على أعينكم فلم تروه، الحجاج نفسه يقول ذلك! والأول يقول له: أليس بينك وبين ربك ما تدعوه به؟ أليس بينك وبينه سرّ تقول: أي ربي فيسترك عنهم؟ فيطمس على أعينهم؛ فلا يروك؟

فلما كان هناك تلك المعرفة كانت الاستجابة، وكان الصيام أحد بنود هذه المعرفة، وأحد بنود هذا السر الذي يدعيه المؤمنون ولا يفقهون له معنى ولا يقيمون له وزنًا، **فإن خرجوا من رمضان وبينهم وبين ربهم سر، بينهم وبين ربهم معرفة، بينهم**

(١) انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص ٤٧٥.

وبين ربهم علاقة، بينهم وبين ربهم محبة خاصة، بينهم وبين ربهم ما يرتفع به الدعاء، ويرفع به البلاء، بينهم وبين ربهم ما يدعونه؛ فيكون ذلك سبب الاستجابة.

فقضية أهل الإيمان في رمضان أن يخرجوا بهذه الأحوال، يعني: **أن يخرجوا وقد صاروا من أولياء الله المتقين وعباده الصالحين**، وصار بينهم وبين ربهم هذه الاستقامة وهذه العلاقة الجيدة الجديدة التي بها يستقيم المرء على طاعة الله تعالى؛ فإن خرج من رمضان خرج وليًّا لله تعالى تقيًّا قد حرّكه بينه وبين ربه هذا السر العظيم الذي وقر في قلبه؛ فكان سببًا لأن تكون كل أعماله هذه نابعة من هذا السر الذي بينه وبين ربه، فلا يخرج من هذه الأعمال حينئذ أعمال تخالف ذلك السر بينه وبينه سر فلا بد وأن يحافظ عليه، وأن يسير بمقتضاه، وأن يعمل على ألا يخالفه.

إذن المقصود من الصوم أن يخرج هؤلاء العباد على حال جديد مع الله تعالى، على حال التي قال فيها المولى سبحانه وتعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] يعني: لعلكم تحصلون التقوى، والتقوى هي السر - هذا المعنى من كلام العلماء-؛ لأن التقوى هذه التي يتكلم عنها القرآن الكريم، والتي يحصلها المرء بالصيام هي سبب القبول، كما في قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] إذا دعوا ربهم تقبل منهم سبحانه وتعالى، إذا عملوا عملاً صالحًا تقبل منهم؛ لأنه لا يتقبل من غيرهم، بل يتقبل منهم هم: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وهؤلاء المتقون الذين قد تحققوا بهذا السرّ هم الذين قال فيهم المولى سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤ ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]، وهؤلاء أيضًا: ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝٣٢ ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

هذا هو السرّ الذي فرط فيه المتقون المؤمنون، وجعلوا رمضان آخر ما يفكرون فيه؛ ليكون بينهم وبين ربهم تلك العلاقة، متأخرين في صلاتهم، ينامون ويريحون أنفسهم ويتركون صلاتهم، وكذلك في صيامهم كأنهم غير صائمين، في قرآنهم قد وفّروا وقتهم لغير القرآن والذكر.

فليتعلم المؤمنون إذن أن قضية السرّ هي **أحد العلامات التي شرع الله تعالى تلك العبادة المهمة لأجلها**؛ ليخرج المؤمنون بينهم وبين ربهم سرّ عظيم جديد، فإذا بهم قد صاروا أولياءه، إذا بهم يدعون فيستجيب لهم، إذا بهم يقولون فيُرفع قولهم إلى الله تعالى، إذا بهم يقعون في البلاء فينجيهم المولى، إذا بهم يحدث لهم شيء فتتنزل عليهم الملائكة؛ تثبيتًا وربطًا على قلوبهم، وأخذًا بهذه القلوب إلى الله تعالى.

ألم يتفكر المرء أن يكون بينه وبين ربه هذا السرّ؟ أن يكون ممن اختصهم الله تعالى بأن يكونوا من أهله وخاصته سبحانه وتعالى؟ بأن يكونوا من أوليائه وأحبائه؟

بأن يكونوا ممن يستجيب دعاءهم، ويرفع طيب كلامهم ويكون سبب نزول الرحمة على هذه الأمة، ودفع البلاء عنهم؟

إن كان عند أهل الإيمان تلك الأماني فينبغي أن ينظروا: ما الذي جعلهم يقصِّرون فيها، ويفرِّطون في تحصيلها، مع أن باب الله تعالى واسع يتسع لكل الخلق أن يدخلوا عليه من هذا الباب؟ وما الذي جعلهم يقدمون هذه الشهوات التي هم فيها على تلك المحاب العظيمة من معرفة الرب ومحبته ما الذي جعلهم كذلك؟ ما الذي أخذ بقلوبهم فأضعفها، وأخذ بأعمالهم فصارت لا قيمة لها عديمة القيمة والأثر لا تترقى بالمرء إلى الله تعالى كما قال: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٦٣] وكما قال سبحانه وتعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [فاطر: ٣٠] وكما قال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٦]، وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الشورى: ٢٥-٢٦].

هذه قضية المؤمنين اليوم ما الذي أخَّرهم هذا التأخر؟ وما الذي يقدمونه على الله تعالى حتى يحصلوا شيئًا زائلاً؟ ما الذي جعلهم يقدمون على محبة ربهم ما هم فيه؟

كيف يخرج المرء من رمضان وقد تحقق بينه وبين ربه هذا السر؟ لأنه لو تحقق بأن يكون بينه وبين ربه هذا السرّ؛ فإنه لا يفرط فيه ولو قُطع إربًا كما يقولون، فإنه سيصبح كما كان أصحاب النبي ﷺ لا يفرطون في هذه المعرفة بينهم وبين ربهم أبدًا،

انظر إليهم: قد دفعوا أنفسهم وأموالهم، وتركوا ديارهم وزوجاتهم وأرضهم، كل ذلك تركوه لله تعالى؛ حتى لا يسمحوا أبدًا أن يتأثر هذا السرّ الذي قد ألقاه الله تعالى في قلوبهم، وتلك المحبة التي باعوا أنفسهم وأوطانهم وأولادهم لها، وحتى لا تتأثر هذه العلاقة بينهم وبين ربهم ومهما كان من دنيا ومال وجاه ومنصب وسلطان لم تكن أبدًا لتعيقهم ولا لتؤخرهم ولا لتكون سببًا في بُعدهم عن ربهم سبحانه وتعالى، أو سببًا لتفريطهم في ذلك السرّ بينهم وبين ربهم جل وعلا.

لو كان بين المرء وبين ربه هذا الحال الحسن فإنه لا يمكن ألبتة أن يفرط فيه؛ لأن الله حينئذ قد اصطفاه إليه واجتباه سبحانه وتعالى، **وإذا ما اجتباه ربه واصطفاه دون الخلق ليكون موضع سره وموضع محبته وموضع استجابته وموضع الإقبال عليه والتعلق به سبحانه وتعالى؛ فإنه حينئذ لا مرد لهذا الحال إلا أن يلقى الله تعالى عليه.**

أما الحال اليوم فما زالت هذه القلوب على هذا التردد، وعلى هذا التشكك في أمر الله تعالى، وعلى هذا الضعف في أخذ هذه الأحوال الحسنة التي يفتح الله تعالى على أهلها بمجرد أن يسيروا إليه سبحانه وتعالى.

كيف يكون السر في الصيام سببًا لتغيير الأحوال؟

والسؤال الآن ماذا ينبني على ذلك؟ كيف ستكون أحوال المرء إذا خرج من رمضان وبينه وبين ربه هذا السر؟ حينئذ تجد تصرفات المرء على الإخلاص والمحبة، إذا جاءه أمر يتعارض مع ربه والسر الذي بينه وبينه تركه لله تعالى، أو جاء أمر يتعارض بينه وبين أوامر الله جل وعلا قدم أوامر الله تعالى، أو جاء يتعارض مع محبة النبي ﷺ قدم محبة النبي؛ فتجد المرء الذي قد امتلأ قلبه بهذا الحال الحسن مع الله

تعالى قد تغيرت أحواله، لا يريد أن يعصي الله تعالى، ولا يحب أن يعصي الله تعالى، ولا يحب أن يغفل عن الله تعالى، ولا يحب أن يخرج في أعماله وأقواله عن مقتضى الإخلاص لله تعالى، فإذا ما وجد نفسه منحرفًا عن ربه إذا بشيء يحركه إلى الله تعالى مرة أخرى، إذا بشيء يخوّفه أن يخرج عن أمر الله، إذا بشيء يخوفه أن ينام عن الله تعالى، أو أن يقصر في أمره، إذا بشيء يخوفه أن يقدم راحته على طاعة الله تعالى ومحبته، فتتغير أحوال وتجد هذا الأمر في قلبه على حسب هذا المصباح المنير من هذا السر العظيم بينه وبين الله تعالى. وكان النبي ﷺ في هذه الأيام المباركة في رمضان لا يحركه إلا هذا الحال بينه وبين الله تعالى.

كان النبي ﷺ يقوم ليله كله؛ لوجود هذا السر بينه وبين ربه، فلا يقصر عنه ولا يفتر في عبادته، ولا يمل من هذه العبادة، وأن كل شيء يعطله عنها فهو شؤم عليه لا يحبه ولا يقبل عليه، وكان أصحاب النبي ﷺ في عباداتهم كذلك إذا ما أتى شيء ليوقعهم في الغفلة، أو ليوقعهم في البعد عن الله تعالى أو مخالفة أمره إذا بهم كما يقول تدور أعينهم كالمجانين: كيف يخالف أمر ربه؟ وكيف يقوم بما يكون سببًا في هذا الحال؟ كلا.

وذلك يُعلِّم المؤمنين كيف يكون بينهم وبين ربهم هذا الحال من الإخلاص والصدق، وذلك التنغيص الذي يحملهم على ألا ينحرفوا عن الله تعالى، أو أن يقصروا عنه، أو أن يناموا في طريقه، أو أن يتكاسلوا عن محبته، أو أن يقدموا أهواءهم وشهواتهم ودنياهم وأموالهم وأولادهم على الله تعالى، فكلما أحس بشيء من ذلك إذا بهذا السر يتردد في قلبه وبهذا الحال يتعارك في قلبه، وإذا به يحاول أن يترك ذلك لله، ويحاول

الشيطان والنفس والهوى أن يحمله على مخالفة ذلك الأمر لله تعالى، فقد جاء رمضان ليقوِّي هذا السر.

لذلك قالوا: هو سر بين الله وبين عبده، لماذا؟ **لأن الصيام يتكون من الإخلاص لله تعالى، ومن الأعمال الخفية، والإخلاص لا يطَّلِع عليه أحد إلا الله، فهو سر.**

كيف يتعارك ويتصارع في قلب المرء ذلك السر الجميل مع هذا الهوى والنوم والراحة؟

لو ضربنا على هذا مثلاً بقيام الليل؛ فالسر معناه: **أنه يحب أن يقوم لله تعالى،** كما كان النبي ﷺ يقوم ليله كله، ويقبل على الله، فيفيض عليه من رحماته وبركاته، ويختصه سبحانه وتعالى بأنواله، ويختصهم جل وعلا بما يقسم من مغفرة وبركات في تلك الليالي.

ثم إذا به في هذا الحال يود أن ينام، وهنا تبدأ المعركة، ويتصارع في قلبه هذا الحال الذي هو السر بينه وبين ربه من الإخلاص والصدق في العمل، والإقبال على الله ومحبته، وألا ينام حين ينام الناس، وألا يهرب حين يهرب الناس، وألا يفر حين يفر الناس، وألا يبخل حين يبخل الناس، فإذا به يأتيه شيطانه وهواه وراحته ليعارك هذا السر، وليصارع هذا السر، وليتغلب على هذا السر؛ ليخفِّف من هذا الإقبال على الله، أو ليمنعه طريق الله سبحانه وتعالى من أصله؛ فإذا به يقدم راحته ونومه ويأتي متأخرًا، ويأتي مسوفًا في عبادته، ويستثقل هذه العبادة، ومتى يخرج منها، ومتى ينتهي من ذلك القيام، ويرى في نفسه أنه لا يُقبَل بهذه المحبة، ولا يود أن يكون قرير

العين بهذه الصلاة، وأنها لذته وروحه وبهجته ونعيمه وإذا خرج منها كان كالسمك إذا خرج من الماء.

هواه وراحته وشيطانه يقولون: نم قليلاً، ثم قم إلى الصلاة، أرح نفسك حتى تستطيع أن تصلي غدًا، وكأن النبي لم يكن وراءه شيء مع أنه كان يحمل أشغال المؤمنين كلها من أولها إلى آخرها، وكان يقوم ليله كله، ويصبح ﷺ ليقوم بأشغال يومه، ما علمنا أنه بسبب الصلاة التي نصليها اليوم يؤخر أعماله كما نفعل ونقول: أنا كنت قائمًا وكنت أصلي، سواء بلسان الحال أو بلسان المقال فيقضي يومه نومًا ، أو يقضيه في راحة الجسم الفاني الزائل، **ولن تأتي راحة هذا الجسم إلا بأن تتعبه لله تعالى**، فتلك لذته ليس تعبه، وتلك بهجته ليس شقاءه، إنما هو نعيمه وسروره، ولذته أن تكون في إقباله على الله تعالى.

وانظر إلينا: كيف يتغلب في قلوبنا، حينئذ تلك الراحة وذلك الهوى، وإراحة الجسم على هذا السر الذي ينبغي أن يكون بين العبد وبين الله تعالى!

انظر إليك إذا تحققت بهذا السر؛ **أن تمشي على الأرض وبينك وبين ربك هذا التعلق وهذه المحبة، وهذا الخوف أن تخرج عن حدوده**، أو أن تقع فيها نهى عنه، أو أن تقصِّر في أوامره، بل أنت من جنوده الذين اختارهم واصطفاهم واجتباهم، ووضع في قلوبهم هذه الأحوال الحسنة التي بها صاروا على هذا النهج الجميل في معرفة الرب ومحبته والإقبال عليه، وأن يبذلوا أنفسهم وأموالهم وأولادهم وديارهم وأرضهم وأزواجهم لله تعالى، كما قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ

﴿حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١].

أين المرء إذن من هذا الحال الذي يوده؟ **من الذي دخل رمضان فإذا به مستبشر بطول القيام وبكثرة البذل وبقلة النوم والطعام والشراب وتقليل الشهوات؟**

وهي المسألة التالية في تحصيل هذا السر وهي: كيف يقلل مجاري الشيطان في الإنسان؟ إن الشيطان كما يقول النبي ﷺ يجري من ابن آدم مجرى الدم[1]؛ فيكون تقليل هذه المجاري بالتقلل من الطعام والشراب.

فلينظر المرء إذن في هذه الأحوال ليرى هل قد أقبل على ربه وأحبه فعلاً، وكان فيما بينه وبين الله هذا العمار، الذي يقول عليه العامة، فيكون بينه وبين ربه عمار، وبينه وبين ربه رفع الدعاء، واستجابة هذا الدعاء، ويكون بينه وبين ربه هذه الاستعانة، والتوكل والإنابة، هذه الطمأنينة بذكره سبحانه وتعالى، كأن يجلس بينه وبين ربه وقد رأى السكينة وقد تنزلت عليه، ورأى قلبه وقد أقبل على الآخرة وتجافى عن دار الغرور، ونظر إلى مصالح معاده التي ينتظرها، أو التي يقبل فيها على الله تعالى جلس وهو مشتاق إلى ربه سبحانه وتعالى يستعد ويجهّز جهازه للقاء الله، وأنه يوشك أن يرحل؛ فيلقى الله تعالى فينظر فيما يبيض وجهه ويثقل موازينه، ويأخذ صحيفته بيمينه ويمر به على الصراط آمنًا يوم القيامة كما ذكر الله جل وعلا.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/١٥٦ ، رقم ١٢٦١٤) ، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٤٣٨ ، رقم ١٢٨٨) ، ومسلم (٤/١٧١٢ ، رقم ٢١٧٤). ولفظه (إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم).

في نهاية المطاف نقول: مبدأ هذا السر هو قول النبي ﷺ: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1] فإما أن تعبده على الرؤية «**كأنك تراه**» أو على المشاهدة «**فإنه يراك**»، يعني: استشعار مشاهدة الله لك.

ما المطلوب إذن للسير إلى هذه الحالة التي تحقق السر؟ **المراقبة لله تعالى**، فيجلس المرء ليراقب ربه ويراه ينظر إليه ويستمع له، ويشهد عليه، ورقيب له سبحانه وتعالى؟ كيف تستشعر ذلك المعنى: ﴿ **وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ** ﴾ [يونس: ٦١] والمعنى: أن هذا الشاهد يراك ويسمعك ويعرف ما تقول.

وأنه: ﴿ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** ﴾ [غافر: ١٩]، و ﴿ **يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى** ﴾ [طه: ٧] فهو سبحانه يعلم عنك كل شيء؛ يعلم تحركات قلبك، ويعلم اتجاهات فكرك، ويعلم إراداتك وطلباتك، ويعلم ما تريد وما لا تريد، ويعلم أملك، ويعلم، مطلوبك، ويعلم أمانيك في هذه الحياة الدنيا، هو يعلم كل شيء.

ينبغي لنا إذن التذلل لله أن يُصلح قلوبنا، وأن يأخذ بها إليه سبحانه وتعالى، ليرى فيها الخوف والرجاء والتطلع إليه سبحانه وتعالى، ليرى منها الهمة والإخلاص والإقبال وصدق العزيمة، فتكون قلوبنا محل لهذا السر، ومحل لمحبة الله تعالى، ومحل لتنزل السكينة، والطمأنينة إليه، **وتخليها من كل شيء سواه سبحانه وتعالى**.

---

(١) رواه مسلم (١/٢٨ ، رقم ١٠٢) في حديث جبريل الطويل وموضع الشاهد منه لفظه (...قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»).

الفهرس

مقدمة الطبعة السادسة ..... - ٣ -

مقدمة ..... - ٥ -

الفصل الأول: التصميم على تحقيق أسباب المغفرة ..... - ٩ -

أولًا : قيمة المغفرة ..... - ١١ -

ثانيًا : أسباب المغفرة ..... - ٢٣ -

الفصل الثاني: حال المؤمنين في رمضان ..... - ٥٩ -

طوال رمضان: شكر نعمة بلوغ رمضان ..... - ٦١ -

طوال رمضان: الجود ..... - ٦٦ -

طوال رمضان: المجاهدة ..... - ٨٠ -

طوال رمضان: المحاسبة ..... - ٨٨ -

طوال رمضان: الدعاء ..... - ٩٣ -

العشر الأواخر.. فرصتك الأخيرة ..... - ١١٢ -

في العشر الأواخر: زيادة الاجتهاد والاهتمام بقبول العمل ..... - ١٢٤ -

قبل الخروج من رمضان: الاستغفار والتوبة ..... - ١٢٧ -

قبل الخروج من رمضان: التفكر في سرعة انقضاء الدنيا ..... - ١٣٥ -

الفصل الثالث: الصيام سر بين العبد وربه ..... - ١٤٠ -

الصيام سر بين العبد وربه ..... - ١٤٢ -

كيف يكون السر في الصيام سببًا لتغيير الأحوال؟ ..... - ١٤٨ -